الخلاصةُ

في تفسير سورة يس

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الله تعالى قد أَنْزَلَ هَذَا القُرْآنِ ، وَفِيهِ خَيرٌ وَبَرَكَةٌ ، وَنَفْعٌ وَهُدىً لِلنَّاسِ ، لِيُرْشِدَهُمْ إِلَى مَا فِيه خَيْرُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ ، وَلِيَتَدَبَّرَهُ أُولُو الأَفْهَامِ والعُقُولِ والأَلْبَابِ . وَتَدَبُّرُ القُرْآنِ لاَ يَكُونُ بِحُسْنِ تلاَوَتِهِ ، وَإِنَّما يَكُونَ بِالعَمَلِ بِمَا فِيهِ ، واتِّبَاعِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ أَوَامرَ ، وَالانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى عَنْهُ، قال تعالى : { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص : ٢٩] }.

وقد اعتاد المسلمون اليوم حفظ كثير منه ، ولاسيما بعض السور التي وردت لها فضائل معينة ترتبط بحياهم كسورة يس ، فكثيرا ما يقرؤونها على الأموات.

وهذا تفسير متوسط لسورة يس ، وقد سرت فيه وفق الخطة التالية :

أولا – ذكرت ما يتعلق بالسورة نفسها حول تسميتها ومكيتها وعدد آياتها ، والأغراض التي اشتملت عليها ، وفضائلها بشكل مستقصى .

ثانيا- قسَّمت الآيات لوحدات ، ووضعت عنواناً لكل وحدةٍ يعبر عنه بشكل دقيق ، وذكرت سبب النزول ، ثم شرح الكلمات ، ثم مناسبة الآيات لبعضها ثم تفسير آيات المقطع بشكل موسع ، ثم ذكرت أهم ما ترشد إليه الآيات مع بعض التوسع في بعض الأمكنة .

وقد اعتمدت على أمهات كتب التفسير ولاسيما التفسير المنير ،وكلمات القرآن للشيخ غازي الدروبي وكتب الحديث وكتب أسباب النزول وغيرها .

وقمت بتخريج الأحاديث من مصادرها الرئيسة والحكم المناسب عليها ، وأحاديث الفضائل يتسامح بها ما لا يتسامح بغيرها .

وآيات كل مقطع ذكرتها بالرسم العثماني (مصحف المدينة النبوية) وما سوى ذلك بالرسم العادي .

قال تعالى على لسان النبي شعيب عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [هود : ٨٨] }

أسال الله تعالى أن ينفع به جامعه وناشره والدال عليه في الدارين وأن يكون القرآن حجة لنا لا حجةً علينا .

جمعه وأعده

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ١٠ ربيع الأول ١٤٣٠ هـ الموافق ل ٦/٣/٢٠٠٩م

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

ما يتعلق بالسورة

مكيّة ، وهي ثلاث وثمانون آية

تسميتها :

سميت سورة يس لافتتاحها بهذه الأحرف الهجائية ، التي قيل فيها إنها نداء معناه (يا إنسان) بلغة طي لأن تصغير إنسان : أنيسين ، فكأنه حذف الصدر منه ، وأخذ العجز ، وقال : يس أي أنيسين. وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ، بدليل قوله تعالى بعده. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وذكر أنها تسمى المعمّة ، والمدافعة ، والقاضية ، ومعنى المعمة : التي تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة. ومعنى المدافعة التي تدفع عن صاحبها كل سوء ، ومعنى القاضية : التي تقضى له كل حاجة – بإذن اللّه وفضله[1]

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة :

١ – بعد أن ذكر تعالى في سورة فاطر قوله : وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ [٣٧] وقوله : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ [٤٢] والمراد به محمد ﷺ ، وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، افتتح هذه السورة بالقسم على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، وأنه أرسل لينذر قوما ما أنذر آباؤهم.

[1] – التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي – (١٢ / ٨) وراجع تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٢٠٩.

٢ - هناك تشابه بين السورتين في إيراد بعض أدلة القدرة الإلهية الكونية ، فقال تعالى في سورة فاطر : وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى [١٣] وقال في سورة يس : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [٣٧ - ٣٨].

٣ - وقال سبحانه في فاطر : وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ [١٢] وقال في يس : وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [٤١].[٢]

أغراض هذه السورة :

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهى : (الإيمان بالبعث والنشور ، وقصة أهل القرية ، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين).

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي ، وصدق رسالة محمد (ﷺ) ثم تحدثت عن كفار قريش ، الذين تمادوا في الغي والضلال ، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله ، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه. ثم ساقت قصة أهل القرية " إنطاكية " الذين كذبوا الرسل ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار .

---

[٢] - التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع - (٢٢ / ٢٨٧) وقارن بالتفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩٠٤)

* وذكرت موقف الداعية المؤمن (حبيب النجار) الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة ، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار .

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون العجيب ، بدءا من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة ، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار ، فإذا هو ظلام دامس ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلك لا تتخطاه ، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله ، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا .

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها ، وعن نفخة البعث والنشور ، التي يقوم الناس فيها من القبور ، وعن أهل الجنة وأهل النار ، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب ، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم ، والأشقياء في دركات الجحيم .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن الموضوع الأساسي ، وهو موضوع " البعث والجزاء " وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه ، وعلى صدقه .[٣]

وقال دروزة : " في السورة توكيد لرسالة النبي ﷺ وصدقها وتنويه بالقرآن. وتقريع للكفار وتنديد بعقائدهم وشدّة غفلتهم وعنادهم. وفيها قصة من القصص المسيحية كما فيها تنويه بنعم اللّه وبعض

[٣] - صفوة التفاسير ــ للصابونى - (٣ / ٨٣)

مشاهد الكون ، وإنذار وتبشير بيوم القيامة وبعض مشاهده ومصائر المؤمنين والكافرين فيه.وفصول السورة منسجمة ومترابطة تسوغ القول إنها نزلت جملة واحدة أو متلاحقة"[٤]

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة. وإيقاعات سريعة. ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثا وثمانين ، بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون.

وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص ، فتتلاحق إيقاعاتها ، وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها. وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار.

والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية. وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة. فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها : «يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ..». وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه. وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته : «وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» ..

---

[٤] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٢٠)

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية. فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول : «وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» .. وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى : «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ. لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ»

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور ، وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة.

تجيء في أولها : «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» .. وتأتي في قصة أصحاب القرية ، فيما وقع للرجل المؤمن. وقد كان جزاؤها العاجل في السياق : «قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قالَ : يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» .. ثم ترد في وسط السورة : «وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟ ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» .. ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة. وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار : «وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» ..

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها ، تتكرر في السور المكية. ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ،

مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها.

هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة – بصفة خاصة – ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها.

ومن مصارع الغابرين على مدار القرون. ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة. ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام. ومشهد الشمس تجري لمستقر لها. ومشهد القمر يتدرج في منازله حتى يعود كالعرجون القديم. ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين. ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين. ومشهد النطفة ثم مشهدها إنسانا وهو خصيم مبين! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون! وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه : منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة اللّه بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر : «إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ». ومنها صورة نفوسهم في سرهم وفي علانيتهم مكشوفة لعلم اللّه لا يداريها منه ستار .. ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد : «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ. فَيَكُونُ» .. وكلها مؤثرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود.

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين : «يا. سين» وبالقرآن الحكيم ، على رسالة النبي – ﷺ – وأنه على صراط مستقيم. يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون. وهي حكم اللّه عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلا ، وأن يحال بينهم وبينها أبدا. وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان .. ثم يوجه رسول اللّه – ﷺ – إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية ، فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين. كما يعرض طبيعة الإيمان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق ..

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بنداء الحسرة على العباد الذين ما يفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به. غير معتبرين بمصارع المكذبين ، ولا متيقظين لآيات اللّه في الكون وهي كثير .. وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السورة ، كما يعرض مشهدا مطولا من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل.

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها. فينفي في أوله أن ما جاء به محمد – ﷺ – شعر ، وينفي عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا. ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة ، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون اللّه يبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة!. ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كتلك النشأة ولا غرابة! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذي تكمن فيه

النار وهما في الظاهر بعيد من بعيد! وبخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة .. وأخيرا يجيء الإيقاع الأخير في السورة : «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ. فَيَكُونُ. فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».[٥]

فضائلها :

عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ النَّبِىُّ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ لِكُلِّ شَىْءٍ قَلْبًا وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس وَمَنْ قَرَأَ يس كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ »سنن الترمذى.[٦]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ، وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ يس مَنْ قَرَأَ يس كَتَبَ اللهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ "[٧]

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا ، وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ يس وَمَنْ قَرَأَ يس وَهُوَ يُرِيدُ بِهَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ، وَأُعْطِي مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ قُرِئَ عِنْدَهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ سُورَةُ يس نَزَلَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْ سُورَةِ يس عَشَرَةُ أَمْلَاكٍ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ، وَيَشْهَدُونَ غُسْلَهُ ، وَيُشَيِّعُونَ جِنَازَتَهُ ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ قَرَأَ يس وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ لَمْ

---

[٥] - في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٥٦

[٦] - سنن الترمذى -(٣١٢٩) ضعيف

[٧] - شعب الإيمان - (٤ / ٩٢) (٢٢٣٣) ضعيف

يَقْبِضْ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ حَتَّى يَجِيئَهُ رِضْوَانُ خَازِنُ الْجَنَّةِ بِشَرْبَةٍ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ فَيَشْرَبُهَا ،وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ،فَيَقْبِضُ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ وَهُوَ رَيَّانُ ، فَيَمْكُثُ فِي قَبْرِهِ وَهُوَ رَيَّانُ ، وَيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ رَيَّانُ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى حَوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ رَيَّانُ "[٨]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " سُورَةُ يس اقْرَءُوهَا عِنْدَ مَوْتَاكُمْ " وَفِي رِوَايَةِ اقْرَءُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ " قَالَ الْحَلِيمِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: " يَعْنِي عَلَى الْمُحْتَضَرِينَ "[٩]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَرَأَ يس ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ فَاقْرَءُوهَا عِنْدَ مَوْتَاكُمْ "[١٠]

وعَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَرَأَ يس فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ " [١١]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَرَأَ يس كُلَّ لَيْلَةٍ غُفِرَ لَهُ "[١٢]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"مَنْ قَرَأَ يس ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ غُفِرَ لَهُ " [١٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ غَفَرَ لَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ "[١٤]

---

[٨] - مُسْنَدُ الشِّهَابِ الْقُضَاعِيِّ (٩٦٤) ضعيف

[٩] - شعب الإيمان - (٤ / ٩٢) (٢٢٣٠) فيه لين

[١٠] - شعب الإيمان - (٤ / ٩٢) (٢٢٣١) فيه لين

[١١] - شعب الإيمان - (٤ / ٩٢) (٢٢٣٢) صحيح مرسل

[١٢] - شعب الإيمان - (٤ / ٩٢) (٢٢٣٤) حسن لغيره

[١٣] - شعب الإيمان - (٤ / ٩٢) (٢٢٣٥) حسن لغيره

وعَنِ الصَّلْتِ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " سُورَةُ يس فِي التَّوْرَاةِ تُدْعَى الْمُعِمَّةَ " قِيلَ: مَا الْمُعِمَّةُ ؟ قَالَ: " تَعِمُّ صَاحِبَهَا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتُكَابِدُ عَنْهُ بَلْوَى الدُّنْيَا، وَتَدْفَعُ عَنْهُ أَهْوَالَ الْآخِرَةِ، وَتُدْعَى الْمُدَافِعَةَ الْقَاضِيَةَ تَدْفَعُ عَنْ صَاحِبِهَا كُلَّ سُوءٍ، وَتَقْضِي لَهُ كُلَّ حَاجَةٍ مَنْ قَرَأَهَا عَدَلَتْ لَهُ عِشْرِينَ حَجَّةً، وَمَنْ سَمِعَهَا عَدَلَتْ لَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَنْ كَتَبَهَا ثُمَّ شَرِبَهَا أَدْخَلَتْ جَوْفَهُ أَلْفَ دَوَاءٍ وَأَلْفَ نُورٍ وَأَلْفَ يَقِينٍ وَأَلْفَ بَرَكَةٍ وَأَلْفَ رَحْمَةٍ، وَنَزَعَتْ عَنْهُ كُلَّ غِلٍّ وَدَاءٍ "[15]

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: " مَنْ قَرَأَ يس مَرَّةً فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ " وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: " مَنْ قَرَأَ يس مَرَّةً، فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ مَرَّتَيْنِ " قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: حَدِّثْ أَنْتَ عَمَّا سَمِعْتَ وَأُحَدِّثُ أَنَا بِمَا سَمِعْتُ "[16]

وعَنْ جُنْدُبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ غُفِرَ لَهُ.[17]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ : " الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْتُخْرِجَتْ : "

---

[14] – شعب الإيمان – (٤ / ٩٢) (٢٢٣٦) حسن لغيره

[15] – شعب الإيمان – (٤ / ٩٢) (٢٢٣٧) وقال : تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ هَذَا عَنْ سُلَيْمَانَ، وَهُوَ مُنْكَرٌ "

[16] – شعب الإيمان – (٤ / ٩٢) (٢٢٣٨) ضعيف

[17] – صحيح ابن حبان – (٦ / ٣١٢) (٢٥٧٤) حسن لغيره

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ " مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ، فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ . وَ " يس " قَلْبُ الْقُرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا أَحَدٌ يُرِيدُ اللَّهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ ، فَاقْرَؤُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ ". رَوَاهُ أَحْمَدُ[١٨]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ " ، وَذَكَرَ أَنَّهُ نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْتُخْرِجَتْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ، وَفَضَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ أَوْ فُضِّلَتْ بِهَا ، وَيَاسِينُ قَلْبُ الْقُرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ، وَاقْرَءُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ "[١٩]

وَلِهَذَا قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء مِنْ خَصَائِص هَذِهِ السُّورَة أَنَّهَا لَا تُقْرَأ عِنْد أَمْر عَسِير إِلَّا يَسَّرَهُ اللَّه تَعَالَى وَكَأَنَّ قِرَاءَتَهَا عِنْد الْمَيِّت لِتَنْزِل الرَّحْمَة وَالْبَرَكَة وَلِيَسْهُل عَلَيْهِ خُرُوج الرُّوح وَاَللَّه تَعَالَى أَعْلَم .[٢٠]

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : حَضَرَ غُضَيْفًا أَشْيَاخٌ مِنَ الْجُنْدِ حِينَ اشْتَدَّ مَرَضُهُ ، فَقَالَ : " مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ يَقْرَأُ يس ؟ فَقَرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ ، فَمَا عَدَا أَنْ قَرَأَ أَرْبَعِينَ آيَةً مِنْهَا ، فَمَاتَ ، فَقَالَ الْأَشْيَاخُ : " إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خَفَّفَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ "[٢١]

ينطوي في الأحاديث تنويه نبوي بهذه السورة لعلّ من حكمته ما فيها من مواعظ وأمثال.

---

[١٨] – مسند أحمد (٢٠٣٠٠) فيه مبهم

[١٩] – مُسْنَدُ الرُّويَانِيِّ (١٢٧١) فيه مبهم

[٢٠] – تفسير ابن كثير – (١٣ / ٢٥٨)

[٢١] – الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ(٩٣١٠) صحيح مرسل

وفي الأحاديث دلالة على أن السور القرآنية كانت مرتّبة معروفة بأسمائها المتواترة تواترا لا ينقطع في حياة النبي صلى اللّه عليه وسلم.[22]

حكم قراءتها على الأموات :

"ذهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى نَدْبِ قِرَاءَةِ سُورَةِ يس عِنْدَ الْمُحْتَضَرِ،لِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ : « اقْرَءُوا (يس) عَلَى مَوْتَاكُمْ » .أَيْ مَنْ حَضَرَهُ مُقَدِّمَاتُ الْمَوْتِ .

كَمَا ذَهَبُوا إِلَى اسْتِحْبَابِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْقَبْرِ ،لِمَا رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا : مَنْ دَخَل الْمَقَابِرَ فَقَرَأَ سُورَةَ يس خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَانَ لَهُ بِعَدَدِ مَنْ دُفِنَ فِيهَا حَسَنَاتٌ[23] ،وَلِمَا صَحَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَوْصَى إِذَا دُفِنَ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَهُ بِفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتِهَا .

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إِلَى كَرَاهَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْمُحْتَضَرِ وَعَلَى الْقَبْرِ [24]

وفيها أيضاً : " اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْقَبْرِ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ تُكْرَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْقَبْرِ بَل تُسْتَحَبُّ،لِمَا رَوَى أَنَسٌ مَرْفُوعًا قَال : مَنْ دَخَل الْمَقَابِرَ فَقَرَأَ فِيهَا يس خَفَّفَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ،وَكَانَ لَهُ بِعَدَدِهِمْ حَسَنَاتٌ ،وَصَحَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَوْصَى إِذَا دُفِنَ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَهُ بِفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتِهَا .

---

[22] – التفسير الحديث لدروزة – (٣ / ٢٠)

[23] – قلت : هذا الحديث موضوع فلا يحتج به ، السلسلة الضعيفة والموضوعة " (٣٩٧/٣) (١٢٤٦)

[24] – الموسوعة الفقهية الكويتية – (ج ٣٣ / ص ٥٩) وحاشية ابن عابدين ١ / ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، والقليوبي وعميرة ١ / ٣٥١ ، وكشاف القناع ٢ / ١٤٧ وحاشية الدسوقي ١ / ٤٢٣ ، والشرح الصغير ١ / ٢٢٨ .

قَال الشَّافعِيَّةُ : يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ.لَكِنْ رَجَّحَ الدُّسُوقِيُّ الْكَرَاهَةَ مُطْلَقًا .

وقَال الْقَلْيُوبيُّ : وَمِمَّا وَرَدَ عَنِ السَّلَف أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الإِْخْلاَصِ إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَهْدَى ثَوَابَهَا إِلَى الْجَبَّانَةِ غُفِرَ لَهُ ذُنُوبٌ بِعَدَدِ الْمَوْتَى فِيهَا .

وَرَوَى السَّلَفُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ يُعْطَى لَهُ مِنَ الأَْجْرِ بِعَدَدِ الأَْمْوَاتِ.

قَال ابْنُ عَابِدِينَ نَقْلاً عَنْ شَرْحِ اللُّبَابِ : وَيَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَأَوَّل الْبَقَرَةِ إِلَى الْمُفْلِحُونَ وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ،وَآمَنَ الرَّسُول،وَسُورَةِ يس،وَتَبَارَكَ الْمُلْكِ،وَسُورَةِ التَّكَاثُرِ وَالإِْخْلاَصِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ أَوْ سَبْعًا أَوْ ثَلاَثًا .

وَقَال الْبُهُوتِيُّ : قَال السَّامِرِيُّ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَ رَأْسِ الْقَبْرِ بِفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ بِخَاتِمَتِهَا.

وَصَرَّحَ الْحَصْكَفِيُّ بِأَنَّهُ لاَ يُكْرَهُ إِجْلاَسُ الْقَارِئِينَ عِنْدَ الْقَبْرِ،قَال : وَهُوَ الْمُخْتَارُ .

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ : إِلَى كَرَاهَةِ الْقِرَاءَةِ عَلَى الْقَبْرِ،لأَِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَل السَّلَفِ،قَال الدَّرْدِيرُ : الْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى أَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ وَجَعْل ثَوَابِهِ لِلْمَيِّتِ وَيَحْصُل لَهُ الأَْجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ."

وقال القرافي:" وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ عَلَى الْقَبْرِ فَقَدْ نَصَّ ابْنُ رُشْدٍ فِي الأَْجْوِبَةِ وَابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَالْقُرْطُبِيِّ فِي التَّذْكِرَةِ عَلَى أَنَّ الْمَيِّتَ

يَنْتَفِعُ بِالْقِرَاءَةِ قُرِئَتْ عَلَى الْقَبْرِ أَوْ فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي بَلَادٍ إلَى بَلَادٍ وَوُهِبَ الثَّوَابُ اهـــ مَحَلُّ الْحَاجَةِ مِنْهُ .[25]

وجاء في الموسوعة الفقهية : "قَال الطَّحْطَاوِيُّ : إِذَا فَرَغُوا مِنْ دَفْـــنِ الْمَيِّتِ يُسْتَحَبُّ الْجُلُوسُ (الْمُكْثُ) عِنْدَ قَبْرِهِ بِقَدْرِ مَا يُنْحَرُ جَـــزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهُ،(فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَـــال : إِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا،ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْل قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَـــرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ،وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُـــل رَبِّي) يَتْلُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ لِلْمَيِّتِ . فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ كَانَ النَّبِىُّ –ﷺ– إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَـــالَ :« اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ ».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يَقْرَأَ عَلَى الْقَبْرِ بَعْدَ الدَّفْنِ أَوَّل سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتَهَا.[26]

شروط القراءة التي يصل ثوابها للميت :

قال الشيخ عبد الحليم محمود :

---

[25] – وانظر : فتاوى حسنين مخلوف – (١ / ٤٨٨) قراءة القرآن على الموتى وعلى المقابر وفتاوى الأزهر – (٨ / ٢٩٥) سورة يس للميت وفتاوى الأزهر – (٨ / ٣٠٢) انتفاع الميت بقراءة القرآن وفتاوى الأزهر – (٨ / ٣٠٢) انتفاع الميت بقراءة القرآن وفتاوى الأزهر – (٨ / ٣١٥) صلة الأحياء بالأموات وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (٩ / ٦٦٧) رقم الفتوى ٦٠٧٦٨ اتخاذ أوراد خاصة والمداومة عليها

[26] – الموسوعة الفقهية الكويتية – (ج ١٦ / ص ٤٢) وانظر المعجم الكبير للطبراني – (ج ١٤ / ص ١٠٨)(١٥٨٣٣) والقراءة على القبور(١) وهو حسن موقوف ، ورفعه الطبراني

" الجمهور مِن أهل السُّنة يُعلن في صراحة أن القراءة التي يصل ثوابها إلى الميت إنما هي القراءة التي ليست مأجورةً، ويُعلن في صراحة أيضًا أنه مِن النِّيَّة التي تتقدم القراءة، وقراءة القرآن على الميت لا تَتقدَّر بزمنٍ بعد الوفاة. فلا تَتَقَيَّدُ بمرور سبعة أيام أو أكثر أو أقل، وما مِن شك في أنه مِن الخير أن يُقرأ القرآنُ عند الميت في حالة الاحْتضار، وأن يُقرأ بعد وَفاته مُباشرةً، وأن يُقرأ له بعد ذلك كلَّما تُتاح الفُرْصة، وليس في الإسلام مُطلقًا ما يدلُّ على أن القِراءة تكون بعد سبعة أيام. "[27]

حكم قراءة سورة يس بعد كل صلاة :

السنَّةُ بعد الصلوات قراءة الأذكار الواردة، وقراءة القرآن في كل وقت لا بأس بها، وأفضل ذلك في الفجر لقوله تعالى: "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً" [الإسراء: من الآية٧٨].

والإكثار من قراءة يس أمر طيب، بشرط ألا يهجر بقية القرآن، فقد روى أنها قلب القرآن وأنها تقرأ عند الموتى، وأنه يغفر لقارئها في ليلة ابتغاء وجه الله. [28]

---

[27] – فتاوي عبد الحليم محمود – (١ / ٢٩٧) في فضْل سورة يس

[28] – فتاوى واستشارات الإسلام اليوم – (١ / ٢٥٦) قراءة القرآن بعد الصلاة –المجيب د. سالم بن محمد القرني–عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

القرآن والرسول والمرسل إليهم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

سبب النزول :

نزول الآية (١) يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ فَيَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ حَتَّى تَأَذَّى بِهِ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى قَامُوا لِيَأْخُذُوهُ وَإِذَا أَيْدِيهِمْ مَجْمُوعَةٌ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ وَإِذَا هُمْ عُمْيٌ لَا يُبْصِرُونَ فَجَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : نَنْشُدُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ يَا مُحَمَّدُ قَالَ : وَلَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إِلَّا وَلِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِمْ قَرَابَةٌ فَدَعَا النبي ﷺ حَتَّى ذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فَنَزَلَتْ : يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ

الْمُرْسَلِينَ إِلَى قَوْلِه تَعَالَى : و سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ قَالَ : فَمَا آمَنَ مِنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ "[29].

نزول الآية (٨) :إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا :

أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا لأفعلن ، فأنزل اللّه : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا إلى قوله : لا يُبْصِرُونَ فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو ، أين هو؟ لا يبصر.

نزول الآية (١٢) :إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى :

أخرج الترمذي عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ كَانَتْ بَنُو سَلِمَةَ فِى نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ فَأَرَادُوا النُّقْلَةَ إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ آثَارَكُمْ تُكْتَبُ ». فَلَمْ يَنْتَقِلُوا.[30] .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ : كَانَ بَنُو سَلَمَةَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : " إِنَّهُ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ " ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ فَتَرَكُوا "[31]

---

[29] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ (١٤٧) فيه النضر بن عبد الرحمن ، أبو عمر الخزاز وهو متروك

[30] – سنن الترمذى (٣٥٣٣) صحيح

[31] – شُعَبُ الْإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٢٧٦١) صحيح

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : " كَانَتْ مَنَازِلُ الْأَنْصَارِ مُتَبَاعِدَةً مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى الْمَسْجِدِ فَنَزَلَتْ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ فَقَالُوا : " نَثْبُتُ فِي مَكَانِنَا "

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : " كَانَتِ الْأَنْصَارُ بَعِيدَةً مَنَازِلُهُمْ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا ، قَالَ : فَنَزَلَتْ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ " فَثَبَتُوا "

وعَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ قُرْبَ الْمَسْجِدِ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَا بَنِي سَلِمَةَ " دِيَارَكُمْ ، إِنَّهَا تُكْتَبُ آثَارُكُمْ "

وعَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ ، قَالَ : وَالْبِقَاعُ خَالِيَةٌ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : " يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ إِنَّهَا تُكْتَبُ آثَارُكُمْ " قَالَ :" فَأَقَامُوا وَقَالُوا : مَا يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا "[٣٢]

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

١ ... يس ... أحد الحروف المقطعة ويقرأ ياسين

٢ ... وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ... القرآن المحكم

٤ ... صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... دين قويم

٦ ... مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ... لم ينذر آباؤهم

٧ ... لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ ... لقد وجب العذاب

٨ ... أَغْلاَلاً ... قيودا تشد أيديهم إلى أعناقهم

---

[٣٢] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ(٢٦٧٠٩-٢٦٧١٢) صحيح

٨ ... فَهُمْ مُقْمَحُون ... غلت أيديهم فجمعت تحت ذقونهم فارتفعت رؤوسهم

٩ ... سَدًّا ... حاجزا ومانعا

٩ ... فَأَغْشَيْنَاهُمْ ... جعلنا على أبصارهم غشاوة

١١ ... اتَّبَعَ الذِّكْرَ ... اتبع القرآن مؤمنا به

١٢ ... وَآثَارَهُمْ ... ما فعلوه من حسن وسوء وما اقتدى به أحد من الخلق

١٢ ... أَحصَيْنَاهُ ... كتبناه وأثبتناه وحفظناه

١٢ ... إِمَامٍ مُّبِينٍ ... في اللوح المحفوظ (أم الكتاب)

التفسير والبيان :

يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ،افتتح اللّه هذه السورة بالحروف المقطعة ، تنبيها لوصف القرآن وإشارة إلى إعجازه ، وتحديا دائما على الإتيان بأقصر سورة من مثله ، وإثباتا قاطعا إلى أنه كلام اللّه الذي لا يضارعه شيء من كلام البشر ، فكأن اللّه يقول للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم : كيف تعجزون عن الإتيان بمثله ، مع أنه كلام عربي ، مركب من الحروف الهجائية التي ينطق بها كل عربي ، ومع ذلك عجزتم عن مجاراته.[٣٣]

---

[٣٣] - التفسير المنير ــ موافقا للمطبوع - (١ / ٧٣) وقارن بالتفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٣)

أي أقسم بالقرآن ذي الحكمة البالغة ، المحكم بنظمه ومعناه بأنك يا محمد لرسول من عند اللّه على منهج سليم ، ودين قويم ، وشرع مستقيم لا عوج فيه.

وفى وصف القرآن بالحكمة هنا ، إلفات لما اشتمل عليه من فرائد الحكمة ، التي هى مورد العقول ، ومطلب الحكماء .. وأن الذي ينظر فى آيات اللّه ينبغى أن ينظر فيها بعقل متفتح ، وبصيرة متطلعة ، وقلب مشوق ، حتى يظفر ببعض ما يتحدث به هذا القرآن الحكيم ، فإنه لا ينتفع بحكمة الحكيم ، إلا من كان ذا حكمة وبصيرة ..[٣٤]

وفي هذا إشارة إلى أن القرآن هو المعجزة الباقية ، وأن محمدا رسول اللّه ﷺ ، صادق في نبوته ، ومرسل برسالة دائمة من عند ربه.

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أي هذا القرآن والدين والصراط الذي جئت به تتزيل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ،كما قال تعالى : وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [الشورى ٤٢/ ٥٢ - ٥٣].

وهذا دليل واضح على مكانة القرآن وأنه أجل نعمة من نعم الرحمن.

لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ ، فَهُمْ غافِلُونَ أي أرسلناك أيها النبي لتنذر العرب الذين لم يأتهم رسول نذير من قبلك ، ولم يأت آباءهم الأقربين من ينذرهم ويعرّفهم شرائع اللّه تعالى ، فهم غافلون عن معرفة الحق والنور والشرائع التي تسعد البشر في الدارين.

---

[٣٤] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩٠٦)

فهذا الحشد العظيم من الصفات العظيمة للنبيّ ، هو وإن كانت تكريما للنبيّ ، وامتنانا عليه بإحسان ربّه إليه ـــ هو أيضا تكريم لهؤلاء الجاهليين ، وامتنان بفضل اللّه عليهم ، إذ بعث فيهم خير رسله ، وخاتم أنبيائه ، ومجتمع كتبه .. وفى هذا حثّ لهم على أن يقبلوا على هذا الخير الكثير المرسل إليهم ، وأن يأخذوا حظهم منه.[٣٥]

لكنّ ذكرهم وحدهم هنا للعناية بهم وتوجيه الخطاب لهم : لا ينفي كونه مرسلا إلى الناس كافة ، بدليل الآيات والأحاديث المتواترة المعروفة في عموم بعثته ﷺ ، مثل قوله تعالى : قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف ٧/ ١٥٨] فعن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "[٣٦]

وعن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ،

[٣٥] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩٠٦)

[٣٦] - صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٣٣٥)

وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "[٣٧]

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي لقد وجب العذاب على أكثر أهل مكة ، وهو ما سجّل عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالقرآن وبمحمد ﷺ ، وهم الذين علم اللّه أنهم يموتون على الكفر ، ويصرون عليه طوال حياتهم.

وقد صدق ما أخبر به القرآن ، ووقع كما أخبر به .. فإن أكثر هؤلاء المشركين الذين شهدوا مطالع الدعوة الإسلامية ، لم يدخلوا فى الإسلام ، فإنه خلال ثلاث وعشرين سنة ــ وهى مدة الرسالة الإسلامية ــ مات كثير من هؤلاء المشركين على شركه ، ومن لم يمت منهم على فراش الموت مات قتيلا فى ميدان القتال مع المسلمين .. ومن امتدّ به الأجل وأدرك الفتح ، ودخل فى دين اللّه مع الداخلين ــ ظل ممسكا بشركه فى صدره ، حتى مات عليه ، أو مات فى حروب الردّة مع المرتدّين ..[٣٨]

والمراد بالقول : الحكم والقضاء الأزلي ، وهو سبق علم اللّه بنهاياتهم ، لا بطريق الجبر والإلجاء ، بل باختيارهم وإصرارهم على الكفر ، وفي هذا تطمين للنبي ﷺ حتى لا يجزع ولا يأسف على عدم إيمانهم به.

ثم ضرب اللّه تعالى مثلا لتصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى إيمانهم ، فقال : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا ، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ

---

[٣٧] - صَحِيحُ ابْنِ حِبَّانَ (٦٥٠٤) صحيح

[٣٨] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩٠٧)

أي إنا جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالقيود ، تمنعهم من فعل شيء ، فصاروا مرفوعي الرؤوس خافضي الأبصار. وهذا يعني أن اللّه جعلهم كالمغلولين المقمحين (الرافعي رؤوسهم الغاضي أبصارهم) في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يوجهون أنظارهم نحوه ، وهم أيضا كالقائمين بين سدين ، لا يبصرون أمامهم ولا خلفهم ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات اللّه ، كما قال : وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ أي تأكيدا لما سبق في تصوير حالتهم أنهم بتعاليهم عن النظر في آيات اللّه جعلوا كمن أحاط به سدان من الأمام والخلف ، فمنعاه من النظر ، فهو لا يبصر شيئا ، وهؤلاء لا ينتفعون بخير ، ولا يهتدون إليه لأنا غطينا أبصارهم عن الحق.

"والأغلال التي جعلها اللّه فى أعناق هؤلاء المشركين ، هي أغلال معنوية.

فإن الذي ينظر إليهم ، وهم ماضون على طريق الشرك ، لا يلتفتون إلى هذا النور الذي عن يمينهم وعن شمالهم ، ومن أمامهم ومن خلفهم ــ يخيّل إليه أن فى أعناق القوم أطواقا من حديد ، قد شلت حركة رءوسهم ، فلم يقدروا على إلفاتها يمينا أو شمالا .."[٣٩]

أما وقد جعل اللّه ــ سبحانه ــ سدّا من بين أيديهم أي من أمامهم ، وسدّا من خلفهم ، فقد أحكم سد المنافذ عليهم من جميع الجهات ، وأصبحوا وقد أغلقت عليهم منافذ النظر إلى العالم الخارجي ، وصاروا

---

[٣٩] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩٠٩)

محصورين فى عالمهم الذي لا شيء فيه غير الضلال والظلام .. فيمينهم وشمالهم مغلق عليهم أبدا بحكم هذا الطوق الذي طوقوا به .. وأمامهم وخلفهم .. مسدودان .. فإذا أداروا وجوههم إلى أي اتجاه ، لم يتغير حالهم ، ولم يرتفع عنهم سد من هذه السدود المضروبة عليهم ، حيث يلازمهم هذان السدان المضروبان عليهم من أمام ومن خلف .. فعلى أي اتجاه يكونون ، يكون السدان من خلفهم ومن أمامهم .. أما عن أيمانهم وعن شمائلهم ، فالطوق قائم بوظيفته فيهم فى كل حال ..

وهذه الصورة إعجاز من إعجاز القرآن ، فى تجسيد المعاني ، وفى بعث الحياة ، والحركة فى الجمادات والساكنات .. حيث نرى الكافر هنا وقد أدخل فى سجن محكم ، مطبق عليه ، لا يرى منه النور أبدا.[٤٠]

وفيه إشارة إلى ما يقع لهؤلاء المشركين من هذه الآيات التي سلطها اللّه عليهم ، من الأغلال والسدود ، فلقد أقامت هذه الآفات غشاوة على عيونهم ، فهم لا يبصرون .. وكيف يبصر من عاش فى هذه الحدود التي لا تتجاوز محيط جسده ؟ وما ذا يبصر لو كان له أن يبصر ؟ .[٤١]

ونتيجة لما سبق : وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي إن إنذارك لهؤلاء المصرين على كفرهم وعدمه سواء ، فلا ينفعهم الإنذار ، ما داموا غير مستعدين لقبول الحق ، والخضوع لنداء اللّه ، والنظر في الدلائل الدالة على صدق رسالة النبي ﷺ ، والتأمل في عجائب الكون المشاهدة الدالة على وجود اللّه تعالى ووحدانيته.

---

[٤٠] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩٠٩)

[٤١] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩١٠)

"إنهم لن يتحولوا عن حالهم التي هم فيها ، فلقد جمدوا على حالتهم تلك ، كما تحنط الموتى فى توابيتها « وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ » (١٠١ يونس) وإذا فلا يقف النبي كثيرا عند هؤلاء المشركين الذين وقفوا من الدعوة هذا الموقف المحادّ لها ، المتربص بها .."[٤٢]

أما نفع الإنذار ، فهو كما ذكر تعالى : إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ، وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ، أي إنما ينفع إنذارك الذين آمنوا بالقرآن العظيم واتبعوا أحكامه وشرائعه ، وخافوا عقاب اللّه قبل حدوثه ومعاينة أهواله ، أو خشوا اللّه قبل رؤيته ، فهؤلاء بشرهم بمغفرة لذنوبهم ، ورضوان من اللّه ، وأجر كريم ونعيم مقيم هو الجنة. ونظير الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ [الملك ٦٧/ ١٢].

" فليوجه النبي وجهه كله إلى المؤمنين ، وليعطهم جهده كله ، ففى هذا الميدان يثمر عمله ، ويقع موقعه من أهله ..

وفى قصر الإنذار على من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ــ فى هذا إشارة إلى الاستعداد الفطري للإيمان عند هؤلاء المنذرين ، وأنهم بفطرتهم السليمة كانوا والإيمان الذي يدعون إليه على موعد ، بل إنهم فى انتظار له ، وشوق إليه ، قبل أن يطلع عليهم ..

---

[٤٢] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩١٠)

وفى جعل الخشية ، للرحمن ، إشارة إلى أنها خشية إجلال وتعظيم ، .. خشية حب وتوقير ، لا خشية جبروت وقهر .. إنها خشية « الرحمن » الذي وسعت رحمته كل شيء .."[43]

ثم أكد اللّه تعالى حصول الجزاء للمؤمنين وغيرهم ، فقال : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى ، وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ أي إننا قادرون فعلا على إحياء الموتى ، وبعثهم أحياء من قبورهم ، ونحن الذين ندوّن لهم كل ما قدموه وأسلفوه من عمل صالح أو سيء ، وتركوا من أثر طيب أو خبيث ، أي نكتب ونسجل أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي أثروها وخلفوها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فمن عمل على نشر الفضيلة جوزي بها ، ومن عمد إلى نشر الرذيلة والسوء في الملاهي أو الكتب الخليعة يحاسب عليها.

"وفى هذا التقرير يتأكد للمؤمنين إيمانهم بهذا الغيب ، وتزداد خشيتهم للّه .." فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسًا فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ عَلَيْهِمُ الْعَبَاءُ، أَوْ قَالَ: مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَرَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَمَّا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ فَخَطَبَ فَقَالَ:" {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } [النساء: ١] الْآيَةُ، ثُمَّ قَالَ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } [الحشر: ١٨] الْآيَةَ،

---

[43] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩١١)

تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ"، حَتَّى قَالَ:" وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ" قَالَ: وَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ، قَدْ كَادَتْ كَفُّهُ أَنْ تَعْجِزَ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجِزَتْ عَنْهَا فَدَفَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَتَتَابَعَ النَّاسُ فِي الصَّدَقَاتِ، فَرَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، وَجَعَلَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، وَقَالَ:" مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ" أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ[٤٤]

وَعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ، عَنِ النَّبِيِّ – ﷺ – قَالَ : " مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا مَا عُمِلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ حَتَّى تُتْرَكَ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ إِثْمُهَا حَتَّى تُتْرَكَ ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُ الْمُرَابِطِ حَتَّى يُبْعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ[٤٥]

---

[٤٤] – شعب الإيمان – (٥ / ٢٦) (٣٠٤٨) وصحيح مسلم (٢٣٩٨) –المجتاب : اللابس – المذهبة : الشيء المموه بالذهب –النمار : جمع نمرة وهى كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب

[٤٥] – المعجم الكبير للطبراني – (١٥ / ٤٥٠) (١٧٦٤٥) حسن

وروى مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ - قَالَ « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ».[٤٦]

ثم ذكر تعالى أن كتابة الآثار لا تقتصر على الناس ، وإنما تتناول جميع الأشياء ، فقال : وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ أي لقد ضبطنا وأحصينا كل شيء من أعمال العباد وغيرهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي سجّل فيه جميع ما يتعلق بالكائنات ، كما قال تعالى : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى [طه ٢٠/ ٥٢] وقال سبحانه : وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [القمر ٥٤/ ٥٢ - ٥٣].

ومضات

هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز ، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا!

والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق اللّه جميعا. وهو مثل صنع اللّه في كل شيء وصنع الناس .. إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات. فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما

---

[٤٦] - صحيح مسلم(٤٣١٠)

يصوغونه منها لبنة أو آجرة. أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز. كائنا في دقته ما يكون .. ولكن اللّه المبدع يجعل من تلك الذرات حياة. حياة نابضة خافقة. تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز .. سر الحياة .. ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر .. وهكذا القرآن .. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ، ويجعل منها اللّه قرآنا وفرقانا ، والفرق بين صنع البشر وصنع اللّه من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض .. هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة![٤٧]

يقسم اللّه سبحانه بهذين الحرفين : «يا. سين» كما يقسم بالقرآن الحكيم. وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرجح الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن. وأن آية كونه من عند اللّه ، الآية التي لا يتدبرونها فيردهم القرآن إليها ، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ولكن نسقه التفكيري والتعبيري فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف.

ويصف القرآن - وهو يقسم به - بأنه «الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ». والحكمة صفة العاقل. والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة. وهي من مقتضيات أن يكون حكيما. ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها. فإن لهذا القرآن لروحا! وإن له

---

[٤٧] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٣٨)

لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك وتصغي له روحك! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات ، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله! ولقد كان رسول اللّه - ﷺ - يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن. كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب! والقرآن حكيم. يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه. ويضرب على الوتر الحساس في قلبه. ويخاطبه بقدر.

ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه.

والقرآن حكيم. يربي بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم. منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم. ويقرر للحياة نظاما كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم.

يقسم اللّه سبحانه بياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة إلى الرسول الكريم : «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..

وما به سبحانه من حاجة إلى القسم. ولكن هذا القسم منه - جل جلاله - بالقرآن وحروفه ، يخلع على المقسم به عظمة وجلالا ، فما يقسم اللّه سبحانه إلا بأمر عظيم ، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين!

«إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» .. والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر ، له سوابق مقررة.

فليس هو الذي يراد إثباته. إنما المراد أن يثبت هو أن محمدا – ﷺ – من هؤلاء المرسلين. ويخاطبه هو بهذا القسم – ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين – ترفعا بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة. إنما هو الإخبار المباشر من اللّه للرسول.

«إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول. وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة. فهي قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف ، ولا التواء فيها ولا ميل. الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس. ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة. يجده من يطلبه في يسر وفي دقة وفي خلوص.

وهي لاستقامتها – بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران. لا تعقد الأمور ولا توقع في إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية. وإنما تصدع بالحق في أبسط صورة من صوره ، وأعراها عن الشوائب والأخلاط ، وأغناها عن الشرح ، وتفصيص العبارات وتوليد الكلمات ، والدخول بالمعاني في الدروب والمنحنيات! يمكن أن يعيش بها ومعها البادي والحاضر ، والأمي والعالم ، وساكن الكوخ وساكن العمارة ويجد فيها كل حاجته ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه في يسر ولين.

وهي مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود ، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان ، فلا تصدم طبائع الأشياء ، ولا تكلف الإنسان

أن يصدمها ، إنما هي مستقيمة على نهجها ، متناسقة معها ، متعاونة كذلك مع سائر القوانين التي تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه.

وهي من ثم مستقيمة على الطريق إلى اللّه ، واصلة إليه موصلة به ، لا يخشى تابعها أن يضل عن خالقه ، ولا أن يلتوي عن الطريق إليه. فهو سالك دربا مستقيما واصلا ينتهي به إلى رضوان الخالق العظيم.

والقرآن هو دليل هذا الصراط المستقيم. وحيثما سار الإنسان معه وجد هذه الاستقامة في تصويره للحق ، وفي التوجيه إليه ، وفي أحكامه الفاصلة في القيم ، ووضع كل قيمة في موضعها الدقيق.

«تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» ..يعرف اللّه عباده بنفسه في مثل هذه المواضع ، ليدركوا حقيقة ما نزل إليهم. فهو العزيز القوي الذي يفعل ما يريد. وهو الرحيم بعباده الذي يفعل بهم ما يفعل ، وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل.

فأما حكمة هذا التنزيل فهي الإنذار والتبليغ : «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ» ..

والغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته. معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة.

تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها. ودون أن ينبض أو يستقبل. ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم ، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر ، أو ينبههم منبه.

فهم من ذرية إسماعيل و لم يكن لهم بعده من رسول. فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة ، الذين لم يأتهم و لم يأت آباءهم نذير.
ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين وعما نزل بهم من قدر اللّه ، وفق ما علم اللّه من قلوبهم ومن أمرهم.
ما كان منه وما سيكون : «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» ..
لقد قضي في أمرهم ، وحق قدر اللّه على أكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم ، وطبيعة مشاعرهم. فهم لا يؤمنون.
وهذا هو المصير الأخير للأكثرين. فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها.
وهنا يرسم مشهدا حسيا لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسرا عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون : «إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا ، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ، فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا. فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» ..
إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم. ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسرا ، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف!
وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم فلو أرخي الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال!

ومع عنف هذا المشهد الحسي وشدته فإن الإنسان ليلتقي بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلا عنيفا كهذا بينهم وبينه. وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك .. مشدودة عن الهدى قسرا وملفوتة عن الحق لفتا. وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك. وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود. وهو يصدع بالحجة ، ويدلي بالبرهان. وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتماسك لها إنسان.

«وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» ..فلقد قضى اللّه فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التي لا ينفذ إليها الإيمان. ولا ينفع الإنذار قلبا غير مهيأ للإيمان ، مشدود عنه ، محال بينه وبينه بالسدود. فالإنذار لا يخلق القلوب ، إنما يوقظ القلب الحي المستعد للتلقي : «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ» ..

والذكر يراد به هنا القرآن - على الأرجح - والذي اتبع القرآن ، وخشي الرحمن دون أن يراه ، هو الذي ينتفع بالإنذار ، فكأنه هو وحده الذي وجه إليه الإنذار. وكأنما الرسول - ﷺ - قد خصه به ، وإن كان قد عمم. إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه ، فانحصر في من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب.

وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار : «فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ» .. المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر. والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب ، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر. وهما متلازمان في القلب. فما تحل خشية اللّه في قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل. والاستقامة على النهج الذي أراد.

وهنا يؤكد وقوع البعث ودقة الحساب ، الذي لا يفوته شي ء : «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى ، وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» ..

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلا طويلا. وسيرد منه في هذه السورة أمثلة منوعة. وهو ينذرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شيء ولا ينسى. واللّه سبحانه هو الذي يحيي الموتى ، وهو الذي يكتب ما قدموا وآثارهم ، وهو الذي يحصي كل شيء ويثبته. فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذي يليق بكل ما تتولاه يد اللّه.

والإمام المبين. واللوح المحفوظ. وأمثالها. أقرب تفسير لها هو علم اللّه الأزلي القديم وهو بكل شيء محيط.[٤٨]

وقال دروزة :

أما الآيات فقد احتوت :

---

[٤٨] - في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٥٨

١ – توكيدا للنبي ﷺ بصدق رسالته وصحة نسبة التنزيل القرآني إلى اللّه وقوة إحكامه ، وكونه على الطريق القويم لينذر قوما غافلين لم ينذر آباؤهم.

٢ – وحملة شديدة على معظم القوم الذين لم ينتفعوا بالإنذار ووقفوا من الدعوة موقف الجحود والعناد حتى كأنما ضرب عليهم سدّ حجب عنهم رؤية الحق. وكأنما قيّدت رؤوسهم بالأغلال فعجزوا عن تحريكها يمنة أو يسرة لاستبانة طريق الهدى.

٣ – وتسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلم. فهو إنما أرسل لينذر الناس وينتفع بإنذاره الذين حسنت نياتهم وصدقت رغباتهم في الحق ، واستشعروا بخوف ربهم فآمنوا به واتبعوا قرآنه ورسوله فاستحقوا مغفرته وأجره الكريم.

٤ – وتقريرا ربانيا بأن اللّه سوف يحيي الناس بعد موتهم وأنه يسجل عليهم جميع ما فعلوه في حياتهم وخلفوه من تبعات بعد موتهم تسجيلا دقيقا وواضحا.

وعلى كل حال فالآيات بسبيل تطمين النبي ﷺ وتثبيته إزاء ما كان يلقاه من قومه من عناد وجحود ومناوأة. وأسلوبها قوي نافذ. والراجح أنها نزلت في ظرف كان لهم أو لبعضهم موقف شديد من ذلك أثار النبي ﷺ وآلمه فاقتضت حكمة التنزيل الإيحاء بها للتطمين والتثبيت من جهة والتنديد والتقريع والإنذار من جهة أخرى.

والآيات [٧ – ٩] قد توهم أن الكفار قد وقفوا موقف الجحود والعناد بتحتيم رباني لم يكن لهم منه مناص. غير أن التروّي فيها وفيما قبلها وما

بعدها يؤيد التأويل الذي أوّلناها به. فالآية [١٠] تذكر أن النبي ﷺ إنما عليه إنذار من اتّبع الذكر وخشي الرحمن وبعبارة أخرى من صدقت رغبته في اتّباع الحق. وهذا يعني أيضا أن الكفار إنما وقفوا موقفهم لخبث نيّتهم وعزوفهم عن الحق فحقّ عليهم القول. فهي من باب وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ في الآية [٢٧] من سورة إبراهيم ،و{وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ في الآية [٢٦] من سورة البقرة و{وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ في الآية [١٥٥] من سورة النساء ،وكَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ في الآية [٣٥] من سورة غافر. وهذا التأويل هو الأكثر انسجاما مع حكمة اللّه تعالى في إرسال الرسل ودعوة الناس وإنذارهم وتبشيرهم وبيان طرق الهدى والضلال لهم وتعيين مصائرهم الأخروية وفق سلوكهم. وهو الأكثر اتساقا مع الحملة الشديدة التي احتوتها الآيات على الكفار والمناوئين ...

وإلى هذا فإنه يتبادر لنا أن أسلوب الآيات قد جاء أيضا بسبيل تسجيل واقع أمر الكفار حين نزولها وحسب وليس على سبيل تأييد عدم إيمانهم سواء أنذروا أم لم ينذروا بدليل يقيني هو أن كثيرا منهم قد آمنوا فيما بعد وحسن إيمانهم ونالوا رضاء اللّه.

فالآيات قد وردت بهذا الأسلوب لتكون أبلغ في التطمين والتثبيت. وفي توجيه الخطاب للنبي ﷺ في الآيات التي قبلها وما فيها من عطف وتأييد وثناء وما في الآية التي بعدها من إيعاز له بأنه إنما ينذر ذوي النفوس الطيبة والرغبات والصادقة ، وأن له فيهم الغناء والعزاء - قرائن قوية على ذلك أيضا.

والآيات مصدر إلهام وتلقين مستمر المدى. سواء أفيما احتوته من ثناء وبشرى لذوي النفوس الطيبة والرغبات الصادقة أم في ما احتوته من حملة تنديدية شديدة على ذوي السرائر الخبيثة الذين يكون ديدنهم المكابرة في الحق والإيغال في الباطل أم في ما احتوته من تثبيت وتطمين يلهمان الدعاة والقادة والزعماء والمصلحين قوة يتغلبون بها على ما يلقونه في طريقهم من عقبات ومصاعب."[49]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ – القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة ، وهو تنزيل من رب العالمين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢ – الرسول محمد ﷺ رسول من عند اللّه ، أرسله اللّه بالهدى ودين الحق ، على منهج وطريق ودين مستقيم هو الإسلام.

٣ – رسالة النبي ﷺ إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة ، فلم يبق بعدها عذر لمعتذر.

٤ – إن رؤوس الكفر والطغيان والعناد من أهل مكة أو العرب استحقوا الخلود في نار جهنم والعذاب الدائم فيها لأنهم أصروا على الكفر ، وأعرضوا عن النظر في آيات اللّه ، والتأمل في مشاهد الكون ، وقد علم اللّه في علمه الأزلي بقاءهم على الكفر ، لكنه أمر نبيه بدعوتهم إلى دينه لأنهم لا يعلمون سابق علم اللّه فيهم ، ولتعليمنا المنهج في دعوة الناس

[49] – التفسير الحديث لدروزة – (٣ / ٢٢)

قاطبة إلى الإيمان باللّه والقرآن ورسالة النبي ﷺ والبعث والحساب والجزاء.

٥ – لا أمل بعد هذا في إنذارهم ولا نفع فيه بعد أن سدوا على أنفسهم منافذ الهداية ومدارك المعرفة ، ولم تتفتح بصائرهم لرؤية الحق والنور الإلهي.

٦ – إنما نفع الإنذار لمن استعد للنظر في منهج الحق ، ثم آمن بالقرآن كتابا من عند اللّه ، وخشي عذاب اللّه وناره قبل المعاينة والحدوث ، فهذا وأمثاله يغفر اللّه له ذنبه ، ويدخله الجنة.

٧ – البعث حق والإيمان به واجب ، واللّه قادر عليه ، وسيكون مستند الجزاء ما كتب من أعمال العباد ، وما تركوه من آثار صالحة أو سيئة ، كما أن اللّه أحصى كل شيء وضبطه من أمور الكائنات ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد دلّ سبب نزول الآية على أن حسنات البعيدين عن المسجد مثل حسنات القريبين منه ، وأنه إن تعذر عليهم الاقتراب من المسجد أو شقّ عليهم ، فلا يلزم القرب منه.

قصة أصحاب القرية

قال تعالى :

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

١٤ ... فَعَزَّزْنَا بثَالث ... قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث

١٨ ... تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ... لم نر على وجوهكم خيرا في عيشنا

١٩ ... طَائِرُكُمْ مَّعَكُمْ ... شؤمكم بسبب أعمالكم وكفركم

١٩ ... أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ... من أجل تذكيرنا لكم بعبادة الله

١٩ ... مُسْرِفُونَ ... مجاوزون الحد بكفركم وشرككم

٢٠ ... يَسْعَى ... يسرع في مشيه لنصرة قومه

٢٢ ... فَطَرَنِي ... خلقني وحده لا شريك له

٢٣ ... لا تُغْنِ عَنِّي ... لا تدفع عني

المناسبة :

مناسبة ضرب هذا المثل هنا ، هو أن الآيات السابقة كشفت عن الطبيعة الإنسانية ، وأن الناس على طبيعتين : أصحاب طبيعة متأبيّة على الخير ، مغلقة الحواسّ عنه ، لا يستجيبون له مهما جيء إليهم به من شتى الوسائل .. وأصحاب طبيعة أخرى مهيأة للإيمان ، مستعدة له ، متشوفة إليه ، لا تكاد تهبّ عليهم نسمة من أنسامه العطرة ، حتى يتنفسوا أنفاسه ، ويملئوا صدورهم به ..وفى هذا المثل ، عرض للناس فى طبيعتيهم هاتين معا ..[٥٠]

فبعد بيان حال مشركي العرب الذين أصروا على الكفر ، ضرب الحق تعالى لهم مثلا يشبه حالهم في الإفراط والغلو في الكفر وتكذيب الدعاة إلى اللّه ، وهو حال أهل تلك القرية الذين كذبوا الرسل فدمرهم اللّه بصيحة واحدة ، فإذا استمر المشركون على عنادهم واستكبارهم ،كان

[٥٠] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١١ / ٩١٣)

إهلاكهم يسيرا كأهل هذه القرية ،وتكون قصتهم مع رسل اللّه ، كقصة قوم النبي ﷺ معه.

التفسير والبيان :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ أي واضرب مثلا في الغلو والعناد والكفر يا محمد لقومك الذين كذبوك بأهل تلك القرية حين أرسل اللّه إليهم ثلاثة فكذبوهم ، كما كذبك قومك عنادا ، وأصر الفريقان على التكذيب.

والقرية : أنطاكية في رأي جميع المفسرين ، والمرسلون : أصحاب عيسى عليه السلام أرسلهم مقررين لشريعته ، في رأي ابن عباس وكثير من المفسرين.

وعقب الخطيب بقوله : " وهذا التأويل للقرية وللرسل ، لا يقوم له شاهد من القرآن الكريم ، ولا تدل عليه إشارة من إشاراته القريبة أو البعيدة .. وإنما هو من واردات أهل الكتاب ، وأخبارهم. والخبر هنا وارد من المسيحية ، وينسب إلى وهب ابن منبّه ، الذي تلقاه من المسيحية ، مما يعرف عند المسيحيين بأعمال الرسل ، الملحقة بالأناجيل فهذا التأويل ــ فى نظرنا ــ لا يعوّل عليه ، ما دام غير مستند إلى دليل من القرآن الكريم ذاته . فالقرآن الكريم ــ فى رأينا ــ يفسر بعضه بعضا ، وهو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى فى قوله :« وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ » (٨٩ : النحل) فكيف لا يكون تبيانا لما فيه ؟ .

وندع القرية واسمها ، والرسل والصفة التي لهم ـــ ندع هذا الآن ، ونعرض المثل على أن القرية واحدة من القرى المبثوثة فى هذه الدنيا ، وأن الرسل ، هم بعض رسل اللّه إلى عباده ..

فهذه قرية ، قد جاءها رسل ، مبعوثون من عند اللّه ،وقد دعوا أصحابها إلى الإيمان ، فلم يلقوا منهم إلّا الصد اللئيم ، والقول القبيح .."[51]

قلت : والصواب ما قاله الخطيب .

ثم بيّن عدد الرسل فقال : إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما ، فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ ، فَقالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ أي حين أرسلنا إليهم رسولين ، أرسلهما عيسى عليه السلام بأمر اللّه تعالى ،فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة ،فأيدناهما وقويناهما برسول ثالث ،فقالوا لأهل تلك القرية : إنا مرسلون إليكم من ربكم الذي خلقكم بأن تعبدوه وحده لا شريك له ، وتتركوا عبادة الأصنام.

فتمسكوا كغيرهم من الأمم بشبهة البشرية ، كما حكى تعالى : قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ أي قال أصحاب القرية للرسل الثلاثة : أنتم مثلنا بشر تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ، فمن أين لكم وجود مزية تختصون بها علينا ، وتدّعون الرسالة؟ واللّه الرحمن لم ينزل إليكم رسالة ولا كتابا مما تدّعون

---

[51] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١١ / ٩١٣)

"قلت : الصواب ما قاله الخطيب فلا يجوز التعويل على أقاويل أهل الكتاب المخالفـــة لظـــاهر القرآن الكريم فهم رسل حقيقة والتفاصيل في كتابنا المهذب في تفسير سورة يس "

، ويدّعيه غيركم من الرسل وأتباعهم ، وما أنتم فيما تدّعون الرسالة إلا كاذبون.

وقولهم : ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ دليل على اعترافهم بوجود اللّه ، لكنهم ينكرون الرسالة ، ويعبدون الأصنام وسائل إلى اللّه تعالى.

وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر اللّه تعالى عنهم في قوله : ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَقالُوا : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا؟ [التغابن ٦٤/ ٦] أي تعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله تعالى : قالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا ، فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ [إبراهيم ١٤/ ١٠].

فأجابهم الرسل : قالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين :

اللّه يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه ، لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزّنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار؟ كقوله تعالى : قُلْ : كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ ، وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ [العنكبوت ٢٩/ ٥٢].

ثم ذكر الرسل مهمتهم : وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، ولا يجب علينا إلا تبليغ الرسالة بنحو واضح ، فإذا استجبتم كانت لكم سعادة الدارين ، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم.

فعند ذلك هددهم أهل القرية : قالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ أي قال لهم أهل القرية : إنا تشاءمنا بكم ، ولم نر خيرا في عيشنا على وجوهكم ، فقد فرقتمونا وأوقعتم الخلاف فيما بيننا ، ولئن لم تتركوا هذه الدعوة ، وتعرضوا عن هذه المقالة ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليصيبنكم منا عذاب مؤلم أو عقوبة شديدة. وقوله : وَلَيَمَسَّنَّكُمْ بيان للرجم ، يعني :ولا يكون الرجم رجما قليلا بحجر أو حجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت ، وهو عذاب أليم. ويرى بعضهم أن الواو بمعنى (أو) والمراد : إما أن نقتلكم أو نسجنكم ونعذبكم في السجون.

فأجابهم الرسل : (قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ) أي قالوا لهم سبب شؤمكم من أفعالكم لا من قبلنا كما تزعمون ، فأنتم أشركتم باللّه سواه،وأولعتم بالمعاصي واجترحتم السيئات،أما نحن فلا شؤم من قبلنا ، فإنا لا ندعو إلا إلى توحيد اللّه ،وإخلاص العبادة له والإنابة إليه ، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة.

(أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) أي أمن جرّاء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة اللّه مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد ؟ بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد في الطغيان ، ومن ثم جاءكم الشؤم ولا دخل لرسل اللّه في ذلك.

والخلاصة - أنتم قوم مسرفون في ضلالكم ، متمادون في غيكم ، تتشاءمون بمن يجب التبرك بهم من هداة الدين ، فقد جعلتم أسباب

السعادة أسبابا للشقاء ولا يخفى ما في ذلك من شديد التوبيخ وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم بحرماهم من الخيرات.

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون « فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ »

"وينتهي موقف الرسل مع أصحاب القرية إلى هذا الطريق المسدود ..ثم لا يلبث أن يجيء صوت العقل ، من واحد من أهل القرية ، فيكسر هذا الحائط ، ويدخل على القوم منه ، ويأخذ موقفه مع الرسل ، داعيا إلى اللّه .."[٥٢]

فقد أبان أنّ الحق لا يعدم نصيرا ، وأن اللّه يقيّض له من يدافع عنه فقال : (وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ) أي وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعا ، لينصح قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل ، فتقدم للذبّ عنهم ابتغاء وجه اللّه ونيل ثوابه ،قال يا قوم اتبعوا رسل اللّه الذين لا يطلبون منكم أجرا على تبليغهم ولا يطلبون علوا في الأرض ولا فسادا،وهم سالكون طريق الهداية التي توصل إلى سعادة الدارين.

" فأي دعوة أولى من هذه الدعوة ،بالقبول لها ، والاحتفاء بأهلها ؟

[٥٢] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١١ / ٩١٥)

إنها دعوة من أهل الهدى ، الذين لا يسألون أجرا على هذا الهدى الذي ، يقدمونه ويدعون إليه ..فلم التمنّع والإعراض عن خير يبذل بلا ثمن ؟ ذلك لا يكون إلا عن سفه وجهل معا ..

ثم يعرض هذا الوافد الجديد ، نفسه عليهم ، في الزىّ الجديد الذي تزيّا ، والخير الموفور الذي بين يديه من تلك الدعوة .. "

فقد أبان لهم أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه فقال : (وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟) أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني ، وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

وفي هذا تقريع لهم بتركهم عبادة الخالق وعبادة غيره ، وتهديد بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب.

ثم أعاد التوبيخ مرة أخرى مبينا عظيم حمقهم فقال : (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ ؟) أي أأعبد من دون اللّه آلهة لا تملك من الأمر شيئا ، وهو لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو ، ولا تملك الآلهة دفعه عنى ولا منعه.

(إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي إنى إذا فعلت ذلك واتخذت من دونه آلهة لفى ضلال بيّن لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، فإن إشراك من لا يخلق وليس من شأنه النفع والضر ، بمن يخلق وهو القادر على كل

شى ء – خطأ ظاهر ، وغلط واضح لدى أرباب الأحلام وذوى الحجا.[٥٣]

"أسئلة إنكارية ، ينكر بها الرجل على نفسه ألا يكون فى العابدين للّه ، الذي فطره ، والذي إليه موعده ولقاؤه مع الناس ، يوم الحشر ، إنه لا بد أن يكون له إله يعبده .. أفيترك عبادة من خلقه ورزقه ، والذي يميته ثم يحييه ..ويعبد آلهة من دون اللّه ، إن يرده اللّه بضر لا تغنى عنه هذه الآلهة شيئا ، ولا تمد يدها لإنقاذه مما يريده اللّه به من ضر ؟

« إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ » !! وأي ضلال بعد هذا الضلال ، الذي يدع فيه الإنسان حبل النجاة الممدود إليه ، ثم يتعلق بأمواج البحر الصاخبة ، وتياراته المتدافعة ؟ ."

وهذا تعريض بهم ، ثم صرح بإيمانه تصريحا لا شك فيه مخاطبا الرسل : إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أي إني صدقت بربكم الذي أرسلكم ، فاشهدوا لي بذلك عنده.

"وهكذا يقولها صريحة مدوّية فى وجه القوم .. إنها هى كلمة النجاة ، وحسبه أن يمسك بها ، وليكن ما يكون ..!

وألا فليسمعوها عالية مدوية متحدية .. إنها كلمة الحق التي يجب أن ترتفع فوق كل كلمة ، وتعلو على كل نداء."

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ خَاطَبَ بِذَلِكَ الرُّسُلَ ، وَقَالَ لَهُمْ : اسْمَعُوا قُولِي لِتَشْهَدُوا لِي بِمَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّي ، وَأَنِّي قَدْ آمَنْتُ بِكُمْ وَاتَّبَعْتُكُمْ ؛

---

[٥٣] – تفسير المراغي ، ج ٢٢ ، ص : ١٥٣

فَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ هَذَا الْقَوْلَ ، وَنَصَحَ لِقَوْمِهِ النَّصِيحَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَثَبُوا بِهِ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي صِفَةِ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ[٥٤]

عَنْ قَتَادَةَ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " هَذَا رَجُلٌ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَأَبْدَى لَهُمُ النَّصِيحَةَ فَقَتَلُوهُ عَلَى ذَلِكَ وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجُمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، حَتَّى أَقْعَصُوهُ وَهُوَ كَذَلِكَ " وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ وَثَبُوا عَلَيْهِ ، فَوَطَئُوهُ بِأَقْدَامِهِمْ حَتَّى مَاتَ "[٥٥]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَنْ كَعْبٍ ، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، قَالَ لَهُمْ : وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي . . إِلَى قَوْلِهِ : فَاسْمَعُونِ " وَثَبُوا وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَتَلُوهُ وَاسْتَضْعَفُوهُ لِضَعْفِهِ وَسَقَمِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنْهُ "[٥٦]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَقُولُ : " وَطِئُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى خَرَجَ قُصْبُهُ مِنْ دُبُرِهِ "[٥٧]

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَقُولُ : " قَالَ اللَّهُ لَهُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَدَخَلَهَا حَيًّا يُرْزَقُ فِيهَا ، قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُ سَقَمَ الدُّنْيَا وَحُزْنَهَا وَنَصَبَهَا ، فَلَمَّا أُفْضِيَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ

---

[٥٤] – الطبري

[٥٥] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٦٧٤٢) صحيح مرسل

[٥٦] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٦٧٤٣) بلاغاً

[٥٧] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٦٧٤٤) فيه جهالة

وَجَنَّته وَكَرَامَته " قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ "[٥٨]

"« قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » ـــ هذا هو الجواب الذي تلقاه الرجل المؤمن ، ردّا على إقراره بالإيمان بربه .. وهو الجزاء الذي يلقاه كل مؤمن صادق الإيمان ..والقول الذي قيل لهذا المؤمن ، إما أن يكون فى الحياة الدنيا ، بوحي من اللّه سبحانه وتعالى ، وإما أن يكون ذلك بعد الموت ، حيث يعلم المرء مكانه من الجنة أو النار فيقال له يومئذ : « ادخل الجنة » فهى الدار التي أعدّها اللّه لك."

«قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ »!

إنه يتمنّى لقومه أن ينالوا هذا الخير الذي ناله ، بإيمانه بربه ، وأن يعلموا ما أعد اللّه للمؤمنين من مغفرة وإكرام .. وأنّى لهم أن يعلموا هذا الغيب ؟

وأنّى لهم أن يؤمنوا به ، وقد أنكروا ما لمسوه بحواسهم ، وكذبوا ما رأوه بأعينهم ؟ ..

يا ليت قومي يعلمون بمآلي وحسن حالي وحميد عاقبتي ، فيؤمنوا مثل إيماني ، فيصيروا إلى مثل ما أنا فيه من نعيم ، وليتهم يعلمون بما أنعم اللّه عليّ من مغفرة لذنوبي ، وبما جعلني في زمرة المكرمين المقربين الشهداء الذين منحهم ربهم الثواب الجزيل والفضل العميم. وهذا شأن المؤمن المخلص يحب الخير للناس جميعا ، عَنْ قَتَادَةَ ، قَوْلُهُ : قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ "

---

[٥٨] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٦٧٤٥) فيه جهالة

فَلَمَّا دَخَلَهَا " قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ قَالَ : " فَلَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا ، وَلَا تَلْقَاهُ غَاشًّا ، فَلَمَّا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ " قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ " تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ "[٥٩] .

"هذا هو المثل ، وتلك هى مواقف الشخصيات والأحداث فيه ..

وعلى ضوء هذا المثل يرى المشركون الضالون ، إلى أين يسير بهم كفرهم وضلالهم ، وإلى أين ينتهي الإيمان بالمؤمنين الذين استجابوا لرسول اللّه ، واستقاموا على الطريق الذي يدعوهم إليه!."

ومضات

لم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية. وقد اختلفت فيها الروايات. ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات.

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئا في دلالة القصة وإيحائها.

ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها. فهي قرية أرسل اللّه إليها رسولين. كما أرسل موسى وأخاه هارون – عليهما السّلام – إلى فرعون وملئه. فكذبهما أهل تلك القرية ، فعززهما اللّه برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند اللّه. وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد «فَقالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ» ..

---

[٥٩] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٦٧٤٦) صحيح مرسل

هنا اعتراض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات ..

«قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» .. «وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ ءٍ» .. «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» .. وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول. فقد كانوا يتوقعون دائما أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير .. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت؟! وهذه هي سذاجة التصور والتفكير. فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة. وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية. وإن هنالك لسرا هائلا ضخما ، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة. حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدني الذي يتلقى به وحي السماء ، حين يختاره اللّه لتلقي هذا الوحي العجيب. وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكا كما كانوا يقترحون! والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية. وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي.

النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به. وهم بشر. فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجا من الحياة يملكون هم أن يقلدوه.

ومن ثم كانت حياة الرسول - ﷺ - معروضة لأنظار أمته. وسجل القرآن - كتاب اللّه الثابت - المعالم الرئيسية في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها ، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون. ومن هذه التفصيلات حياته المترلية والشخصية. حتى خطرات قلبه سجلها القرآن في بعض الأحيان ، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان.

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هي التي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان! ولقد قال أهل تلك القرية لرسلهم الثلاثة : «ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» .. وقصدوا أنكم لستم برسل .. «وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ ءٍ» .. مما تدعون أنه نزله عليكم من الوحي والأمر بأن تدعونا إليه. «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» ..وتدعون أنكم مرسلون! وفي ثقة المطمئن إلى صدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل : قالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» ..

إن اللّه يعلم. وهذا يكفي وإن وظيفة الرسل البلاغ. وقد أدوه. والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف. وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار. والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن اللّه فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى اللّه.

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى فتأخذهم العزة بالإثم ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عربيد :

«قالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ! لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» ..

قالوا : إننا نتشاءم منكم ونتوقع الشر في دعوتكم فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم ، ولن ندعكم في دعوتكم : «لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» ..

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه وأطلق على الهداة تهديده وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد في التعبير والتفكير! ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق : «قالُوا : طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» ..

فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية. والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم. مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم. وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيرا أو أن يجعلوه شرا. فإن إرادة اللّه بالعبد تنفذ من خلال نفسه ، ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عمله. وهو يحمل طائره معه. هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشاؤم بالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات .. فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم! وقالوا لهم : «أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ؟» ..

يعني أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم! أفهذا جزاء التذكير؟

«بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» ..تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير وتجازون على الموعظة بالتهديد والوعيد وتردون على الدعوة بالرجم

والتعذيب! تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل. وهي مثل للقلوب التي تحدثت عنها السورة في الجولة الأولى وصورة واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك.

فأما النموذج الآخر الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة : «وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ» ..

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة. فيها الصدق. والبساطة. والحرارة. واستقامة الإدراك.

وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتا ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق ، وفي كفهم عن البغي ، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان. ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته. ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها ..

«قالَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ..

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجرا ، ولا يبتغي مغنما .. إنه لصادق. وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفا من اللّه؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجني من ذلك كسبا ، ولا يطلب منهم أجرا؟

«اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً» .. «وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ..وهداهم واضح في طبيعة دعوتهم. فهم يدعون إلى إله واحد. ويدعون إلى نهج واضح. ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض. فهم مهتدون إلى نهج سليم ، وإلى طريق مستقيم.

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم : « وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» ..إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق ، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد .. «وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي؟» وما الذي يحيد بي عن هذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطر؟ إن

الفطر مجذوبة إلى الذي فطرها ، تتجه إليه أول ما تتجه ، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها. ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها. والتوجه إلى الخالق هو الأولى ، وهو الأول ، وهو المتجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري. والرجل المؤمن يحس هذا في قرارة نفسه ، فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط ، بلا تكلف ولا لف ولا تعقيد! وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق في النهاية. كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل. فيقول : «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ..ويتساءل لم لا أعبد الذي فطرني ، والذي إليه المرجع والمصير؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه. فهو خالقهم كذلك. ومن حقه أن يعبدوه.

ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للمنهج الفطري المستقيم. فيراه ضلالا بينا : «أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟» ..

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه ، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله؟

«إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» ..

والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين. لأن صوت

الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب : «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ» ..

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة. وأشهدهم عليها. وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها. أو أنه لا يبالي بهم ماذا يقولون! ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه. وإن كان لا يذكر شيئا من هذا صراحة. إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وما هم فيه ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق ، متبعا صوت الفطرة ، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل. نراه في العالم الآخر. ونطلع على ما ادخر اللّه له من كرامة. تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد : «قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قالَ : يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» ..

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء. وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة. ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق. ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن. وقد اطلع على ما آتاه اللّه في الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين.[٦٠]

وقال دروزة :

[٦٠] – في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٦١

" الآيات معطوفة على سابقاتها والضمير في وَاضْرِبْ لَهُمْ عائد إلى الكفار الذين حكت الآيات السابقة موقفهم من الدعوة كما هو المتبادر. وهكذا يكون هذا الفصل قد جاء معقبا على سابقه تعقيب تمثيل وتذكير ، وفيه توثيق للتأويل الذي أوّلناه للآيات التي حكت موقف الجاحدين والتخمين الذي خمّنّاه بنزول الفصل السابق في ظرف أزمة من أزمات النبي ﷺ النفسية لموقف مثير وقفه الكفار.

وعبارة الآيات واضحة لا تقتضي أداء آخر. وقد احتوت قصة رسل أرسلهم اللّه إلى إحدى المدن وموقف أهلها الجحودي منهم ، سيقت لسامعي القرآن أو الكافرين منهم على ما هو المتبادر للتمثيل والتذكير.

وأسلوب الآية الأولى وفحواها يلهمان أن المثل الذي أمر النبي ﷺ بضربه ليس غريبا عن السامعين وأنهم أو أن منهم من كان يعرف القصة المذكورة فيه..

وأسلوب الآيات صريح في أن المقصود منها المثل والتذكير والعبرة وهذا هو الهدف العام لكل القصص القرآنية الذي يكون محكما مؤثرا حينما تكون القصة المساقة مما يعرفه السامعون.

ومما يلحظ أن في حكاية الحوار بين رسل اللّه وأهل القرية ثم بين أهل القرية والمؤمن تشابها مع حالة الكفار العرب سواء فيما كان من سخفهم وضلالهم في اتخاذ آلهة غير اللّه أم في موقفهم من النبي ﷺ وأقوالهم له في معرض التكذيب والجحود أم في تهديدهم لرسلهم بالعذاب والأذى إذا لم يكفوا عن دعوتهم بحيث تبدو في هذه الملحوظات حكمة المثل وهدفه وهو تذكير الكفار العرب بأنهم ليسوا

المتفردين في مواقفهم وأقوالهم وباطل عقائدهم ، وتبكيتهم على ما هم فيه من سخف وضلال وعناد ، وإنذارهم بعذاب اللّه الذي أصاب أمثالهم فجعلهم خامدين دون ما حاجة إلى جنود تترل وحرب تنشب ، وتطمين النبي ﷺ بأنه ليس المتفرّد فيما لقي من كفار قومه وأن له الأسوة بمن تقدمه من الرسل في الأزمنة القديمة أو الحديثة بالنسبة لزمنه فلا يحزن ولا يغتمّ وأنه ليس عليه إلّا التبليغ والتذكير مثلهم.

وأسلوب حكاية موقف المؤمن وأقواله لقومه قوي أخاذ. سواء في تبكيته وتسفيهه للمعاندين أم في إغرائه وتشويقه على الإيمان باللّه وتصديق رسله ومن شأن ذلك أن يحدث أثرا نافذا في السامعين. وهذا ما استهدفته الحكاية على ما هو المتبادر. ولعلّ من أثرها ما روته روايات السيرة من تفاني الرعيل الأول من المسلمين في مكة في نصرة وتأييد النبي ﷺ والذبّ عنه والتعرّض بسبب ذلك لصنوف الأذى. وفيها أسوة وحافز على نصرة الحق والداعين إليه في كل موقف وزمان."[٦١]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ - لم يترك اللّه سبحانه في قرآنه سبيلا لدعوة الناس إلى الإيمان الصحيح ، سواء بالأدلة والبراهين ، أو بإعمال الفكر والعقل ، أو بالتأمل والمشاهدة ، أو بضرب الأمثال ، أو بذكر القصص للعظة والعبرة.

[٦١] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٢٦)

والمراد من بيان قصة أصحاب القرية : توضيح أن النبي ﷺ أمر بإنذار المشركين من قومه ، حتى لا يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل.

٢ - يكون الرسول عادة من جنس المرسل إليهم ، حتى لا يبادروا إلى الإعراض بحجة المغايرة والمخالفة ، فتكون شبهة الكافرين ببشرية الرسل في غير محلها ، وإنما الباعث عليها الاعتزاز بالنفس والاستعلاء والاستكبار فيما يبدو.

٣ - يؤكد الرسل عادة صدقهم بالمعجزات ، التي يؤيدهم الله بها، فإن كذبهم قومهم، لم يجدوا سبيلا إلا التصريح بمهمتهم بالتحديد ، وهي إبلاغ الرسالة ، والإعلام الواضح في أن اللّه واحد لا شريك له..

٤ - لا يجد المرسل إليهم في العادة ذريعة بعد دحض حجتهم إلا ادّعاء التشاؤم بالرسل. قال مقاتل في أصحاب القرية : حبس عنهم المطر ثلاث سنين ، فقالوا : هذا بشؤمكم. ويقال : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين.

٥ - ثم إذا ضاق الأمر بهم يلجؤون عادة إلى التهديد والوعيد إما بالطرد والإبعاد من البلد ، وإما بالقتل أو الرجم بالحجارة. قال الفراء في قوله : لَنَرْجُمَنَّكُمْ : وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل : لنشتمنكم.

وأما قوله تعالى : وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ فهو إما القتل أي الرجم بالحجارة المتقدم ، وإما التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب.

٦ - إن الشؤم الحقيقي من أهل القرية وهو الشرك والكفر وتكذيب الرسل ، وليس هو من شؤم المرسلين ، ولا بسبب تذكيرهم ووعظهم ، وإنما بسبب إسرافهم في الكفر ، وتجاوزهم الحدّ ، والمشرك يجاوز الحدّ.

٧ - لا يعدم الحق في كل زمان أنصارا له ، وإن كانوا قلة ، وكان أهل الباطل كثرة ، فقد قيض اللّه مؤمنا من أهل القرية جاء يعدو مسرعا لما سمع بخبر الرسل ، وناقش قومه ، ورغبهم وأرهبهم ، ودعاهم إلى توحيد اللّه واتباع الرسل ، وترك عبادة الأصنام ، فإن الرسل على حق وهدى ، لا يطلبون مالا على تبليغ الرسالة ، وهذا دليل إخلاصهم وعدم اتهامهم بمأرب دنيوي ، والخالق هو الأحق بالعبادة ، وهو الذي إليه المرجع والمآب ، فيحاسب الخلائق على ما قدموا من خير أو شر.

أما الأصنام فلا تجلب نفعا ولا تدفع ضررا ، ولا تنقذ أحدا مما ألمّ به من البلاء ، فمن عبدها بعدئذ فهو في خسران ظاهر.

٨ - ثم صرح مؤمن القرية مخاطبا الرسل بأنه مؤمن باللّه ربهم ، فليشهدوا له بالإيمان.

٩ - لقد كان جزاؤه المرتقب من القوم بسبب تصلبه في الدين ، وتشدده في إظهار الحق : القتل أو الموت الزؤام. وأما جزاؤه من اللّه فهو التكريم في جنان الخلد.

١٠ - بالرغم من هذا الإيذاء والتعذيب أحبّ هذا المؤمن ، كشأن كل مؤمن ، أن يبادر قومه إلى الإيمان بمثل ما آمن به ، ليحظوا بما حظي به من النعيم والنجاة. قال ابن عباس : نصح قومه حيّا وميتا.

١١ – قال القرطبي : وفي هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل ، وهم كفرة عبدة أصنام [٦٢] .

١٢– أهمية ضرب الأمثال :

" الصورة التي يصورها المثل واضحة مشرقة ، لا ينقصها أن يفتقد اسم القرية فيها ، ولا أن تغيب أسماء الرسل ومشخصاهم . إنها مستغنية عن كل هذا..

وإذا كان لا بد من التطلع إلى ما وراء هذه الصورة ، والنظر إلى موقع القرية من هذا العالم ، وإلى أشخاص الرسل من بين رسل اللّه ــ إذا كان لا بد من ذلك ، فليكن النظر مقصورا على كتاب اللّه ، وليكن التطلع محجوزا فى هذه الحدود .. لا يتجاوزها ..

وننظر فى القرآن الكريم فنرى :

أولا : أن القرآن الكريم ، لم يتحدث عن رسولين حملا رسالة واحدة ، إلى جهة واحدة ، غير موسى وهرون ..

وثانيا : أن هذين الرسولين الكريمين ، قد حملا رسالتهما إلى فرعون ..

وثالثا : أنه قد قام من قوم فرعون رجل مؤمن ، خرج على سلطان فرعون ، وعلى ما كان عليه قومه من متابعة فرعون فى كفره وضلاله.

---

[٦٢] – تفسير القرطبي : ١٥/ ٢٠

ورابعا : أن القرآن الكريم ، يعقد الصلة فى أكثر من موضع منه ، بين فرعون ، وبين هؤلاء المشركين من قريش ..فإذا نظرنا إلى المثل على ضوء هذه الإشارات المضيئة من القرآن الكريم ، نجد :

أولا : أن قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما » يقبل التأويل ، على أن الرسولين ، هما موسى ، وهرون ، كما يقول تعالى : « اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى » (٤٣ : طه) ..

وثانيا : أن قوله تعالى : « فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ » يقابله فى قصة موسى وهرون مع فرعون ، حديث عظيم فى القرآن العظيم ، عن رجل لم يكشف القرآن عن اسمه ، وإنما أشار إلى أنه من آل فرعون .. أي خاصته ، وذوى قرابته ..

فهو إنسان ذو شأن فى المجتمع الفرعوني .. ومع هذا لم يكشف القرآن عن اسمه .. إذ ما جدوى الاسم ، فى مقام الوزن للقيم الإنسانية فى الناس ؟ إن المعتبر هنا هو الصفة لا الموصوف ، وذات المسمّى لا الاسم

يقول القرآن الكريم ، عن هذا الرجل المؤمن : « وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ وَيا قَوْمِ إِنِّي

أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ ... » (٢٨ ــ ٣٤ : المؤمن).

ثم تمضى الآيات ، فتذكر دعوة هذا الداعي إلى اللّه .. فيقول سبحانه :« وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ » (٣٨ ــ ٤٥ : المؤمن) ..

هذه دعوة رجل صاحب رسالة .. إنها إن لم تكن على يد رسول ، فهى رسالة رسول ، وحقّ لصاحبها أن يدخل فى زمرة الرسل .. وهذا هو السر فى التعبير القرآنى : « فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ » أي فعززنا الرسولين بثالث ، وهذا يمكن أن يحمل ــ وهو فى إطلاقه كهذا ــ على محملين ، فيقدّر برسول ثالث ، أو معين ثالث ، بعد المعين الثاني ، الذي كان معينا

للرسول الأول ، فهو تعزيز بعد تعزيز .. ولقد عزّز موسى بهارون ، وكان هذا الرجل المؤمن تعزيزا لهما ..

بقيت مسألة تحتاج إلى نظر .. وهى أن المثل ذكر مع الرسل الثلاثة ، رجلا ، كانت له دعوة إلى اللّه كدعوة هؤلاء الرسل ، وأنه جاء من أقصى المدينة ، وهى القرية التي جاء ذكرها فى أول المثل .. وهذا الرجل يكاد يكون صورة مطابقة لمؤمن آل فرعون ، الذي قلنا عنه إنه رسول ، أو حوارىّ رسول. فمن هو هذا الرجل ؟ وهل له مكان فى قصة موسى مع فرعون ؟ .

ونعم ، فإننا نجد فى قصة موسى مع فرعون ، رجلا آخر ، جاء من أقصى المدينة ، يسعى .. ولكنه فى هذه القصة لم يكشف عن دعوة له إلى اللّه ، وإنما جاء ناصحا لموسى ، هاتفا به أن يخرج من المدينة ، فإن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، كما يقول تعالى فى سورة القصص : « وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » (آية ٢٠).

ولم تكن للرجل دعوة إلى اللّه هنا ، لأن موسى لم يكن قد أرسل بعد وربما كان الرجل مؤمنا باللّه ، يدين بالتوحيد عن طريق اليهودية ، أو عن طريق النظر الحرّ .. وعلى أىّ فهو على غير دين فرعون .. وقد ظل الرجل على إيمانه إلى أن بعث اللّه موسى رسولا ، فلما جاء موسى يدعو فرعون إلى اللّه ، وعرض بين يديه تلك المعجزات ، ازداد الرجل إيمانا ، فأصبح داعية إلى اللّه ، يدعو قومه إلى الإيمان باللّه ..

وعلى هذا ، فإننا نجد فى القصة والمثل رجلين :

أحدهما ، وهو المؤمن الذي من آل فرعون. والذي وقف مع موسى وهرون موقف الداعية إلى اللّه ، وأنه كان على إيمان باللّه ، ولكنه كان يكتم إيمانه خوفا من فرعون ، فلما رأى أن فرعون يدبّر لقتل موسى ، فزع لهذا الأمر ، وأعلن إيمانه ، ووقف مع موسى وهرون ، يحاجّ فرعون ، ويجادله ، إذ كان ـــ مع إيمانه ـــ ذا جاء وسلطان .. إنه من آل فرعون! ..

أما الرجل الآخر ، فهو الذي جاء إلى موسى ، قبل الرسالة ، وحذّره مما يدبر له القوم ، ونصح له بالفرار من المدينة ..وبهذا نرى أن أحد الرجلين ، خلّص موسى من القتل بعد الرسالة ، على حين أن الآخر قد خلّصه من القتل أيضا ، ولكن قبل الرسالة ..

ومسألة أخرى ، تحتاج إلى نظر أيضا ..إذا كان هذان الرجلان هما المشار إليهما فى المثل المضروب ، فى سورة « يس » باعتبار أن الرجل الذي من آل فرعون هو الرسول ، أو حوارىّ الرسول ، وأن الآخر هو الذي جاء من أقصى المدينة ، وقال : يا قوم « اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ الآيات » ـــ إذ كان ذلك كذلك ، فلم نوه القرآن الكريم فى المثل المضروب بالرجل الآخر ، و لم يذكر شيئا عن موقف الرجل الأول ، الذي هو من آل فرعون ، والذي قلنا إنه هو الذي عزّز به الرسولان الكريمان ؟ :

والجواب على هذا ـــ واللّه أعلم ـــ من وجهين :

فأولا : أنه بحسب مؤمن آل فرعون تنويها ، أن يضاف إلى الرسولين الكريمين ، وأن يكون له المكان الثالث معهما .. فقد رفع إلى درجة رسول.

وثانيا : وبحسبه شرفا وتكريما أن تسمى فى القرآن سورة باسمه ، هى سورة « المؤمن » والتي تسمى « غافر » أيضا .. أما الرجل الآخر ، فهو الذي جاء إلى موسى ، قبل الرسالة ، وحذّره مما يدبر له القوم ، ونصح له بالفرار من المدينة ..

وبهذا نرى أن أحد الرجلين ، خلّص موسى من القتل بعد الرسالة ، على حين أن الآخر قد خلّصه من القتل أيضا ، ولكن قبل الرسالة ..

ومسألة أخرى ، تحتاج إلى نظر أيضا ..إذا كان هذان الرجلان هما المشار إليهما فى المثل المضروب ، فى سورة « يس » باعتبار أن الرجل الذي من آل فرعون هو الرسول ، أو حوارىّ الرسول ، وأن الآخر هو الذي جاء من أقصى المدينة ، وقال : يا قوم « اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ الآيات » ـــ إذ كان ذلك كذلك ، فلم نوه القرآن الكريم فى المثل المضروب بالرجل الآخر ، ولم يذكر شيئا عن موقف الرجل الأول ، الذي هو من آل فرعون ، والذي قلنا إنه هو الذي عزّز به الرسولان الكريمان ؟ :

والجواب على هذا ـــ واللّه أعلم ـــ من وجهين :

فأولا : أنه بحسب مؤمن آل فرعون تنويها ، أن يضاف إلى الرسولين الكريمين ، وأن يكون له المكان الثالث معهما .. فقد رفع إلى درجة رسول.

وثانيا : وبحسبه شرفا وتكريما أن تسمى فى القرآن سورة باسمه ، هى سورة « المؤمن » والتي تسمى « غافر » أيضا .. وقد ذكرت فى هذه السورة رسالته كلها ، والتي قلنا عنها إنها رسالة رسول ..!

هذا ، واللّه أعلم ... "[٦٣]

---

[٦٣] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١١ / ٩١٧)

إهلاك مكذبي الرسل

قال تعالى :

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٢٩ ... صَيْحَةً وَاحِدَةً ... صوتا مهلكا

٢٩ ... خَامِدُونَ ... ميتون

٣٠ ... يَاحَسْرَةً ... يا ويلا ويا تندما (وهذا غاية التألم)

٣١ ... كَمْ أَهْلَكْنَا ... أهلكنا كثيرا من الأمم

٣١ ... القُرُون ... الأمم

٣٢ ... وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ ... جميع الأمم السابقة واللاحقة

٣٢ ... مُحْضَرُونَ ... ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة

المناسبة :

ينتهى المثل الذي ضربه اللّه سبحانه وتعالى لأصحاب القرية فى الآية السابقة على هذه الآيات ـــ ينتهى بهذا التعقيب الذي بدأت به الآيات التي نحن بين يديها الآن ، ومن هذا التعقيب يكون المنطلق الذي تنطلق فيه الآيات بعد هذا ، فتواجه المشركين الذين استمعوا إلى هذا المثل ،

وتعرض عليهم مشاهد من قدرة اللّه سبحانه وتعالى ، ومن آثار رحمته فى خلقه ، لعلهم يجدون فى هذه المشاهد ، ما يفتح قلوبهم وعقولهم إلى اللّه ، حتى يؤمنوا ، ويلحقوا بركب المؤمنين ، قبل أن تفلت من أيديهم تلك الفرصة السانحة ، ثم لا يكون منهم إلا الحسرة والندم ، ولات ساعة مندم.[٦٤].

التفسير والبيان :

وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ "

"هو تعقيب على قوله تعالى على لسان العبد المؤمن : « يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ »..إنهم لن يعلموا شيئا ، ولو علموا ما آمنوا .. إنهم لا يؤمنون إلا إذا نزل عليهم ملائكة من السماء ، بعد أن رفضوا الرسل ، لأنهم بشر ، وقالوا « ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ». . واللّه سبحانه لم يرسل إلى قوم ملائكة حتى تتحقق أمنيتهم فيهم ، وما كان اللّه مرسلا ملائكة إلى هؤلاء المشركين ، الذين كانوا يقولون : « لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا ؟ » (٢١ : الفرقان) ويقولون : « ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ؟ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً » (٧ : الفرقان).

وإذن فليمت هؤلاء المشركون على شركهم ،كما مات فرعون وقومه من قبلهم على كفرهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى الآية التالية :

---

[٦٤] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١٢ / ٩٢٥)

« إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ ».. إنها صيحة الموت ، التي يقضى بها على النّاس ، مؤمنهم ، وكافرهم .."

وهذا لتحقير شأنهم ، فإن إنزال الملائكة لعظائم الأمور ، وهؤلاء لا يحتاجون لإهلاكهم جندا من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحده ، كما قال تعالى : إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ خامِدُونَ أي ما كان إهلاكهم إلا بصيحة واحدة صاح بهم جبريل ، فأهلكهم ، فإذا هم أموات لا حراك بهم.

وقوله : إِنْ كانَتْ أي الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة ، وقوله : واحِدَةً تأكيد لكون الأمر هينا عند اللّه ، وقوله : فَإِذا هُمْ خامِدُونَ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك.

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ، ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

" يمكن أن يكون هذا نداء من الحق سبحانه وتعالى للحسرة ، لتقع على الكافرين المكذبين برسل اللّه ، وأن تشتمل عليهم ، ليذوقوا عذاب الندم ، إلى جانب العذاب الجهنمى ، نعوذ باللّه منهما .. وهذا ما يشير إليه سبحانه فى قوله تعالى : « لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ » (١٥٦ : آل عمران).

ويمكن أن يكون ذلك نداء تعجبيّا من الوجود كلّه ، لهذه الحسرة التي تقع على الناس ، استفظاعا لها ، وإشفاقا منها أن تمتد ظلاله الكئيبة إلى كل موجود.

وقوله تعالى : « ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ » هو على التقدير الأول ، تعليل للحسرة التي ساقها اللّه إلى المكذبين والضالين ..

وهو على التقدير الثاني ، جواب لسؤال ينطق به لسان الحال ، وهو : أية جناية جناها الناس حتى يساق إليهم هذا البلاء العظيم ؟

فكان الجواب : « ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ».

وفى وصف الناس بأنهم عباد ، إشارة إلى أنهم ـــ وهم عباد ـــ لم يرعوا حق العبودية للّه ، بل كفروا باللّه ، وكذبوا رسله ، واستهزءوا بهم.والمراد بالعباد ، هم الناس جميعا على اختلاف أوطانهم ، وأزمانهم ..إنهم هكذا دأبهم وقليل منهم من يؤمن باللّه ، ويصدّق رسله .. أما الكثرة منهم ، فهم على هذا الوصف!."

وتنكير حَسْرَةً للتكثير. وسبب التحسر عليهم : أنهم لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية. ولا متحسر أصلا في الحقيقة ، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة ، حيث ظهرت الندامة عند مواجهة العذاب ومعاينته. وقيل : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل.

ثم أنذر اللّه تعالى الأجيال الحاضرة والمستقبلة فقال: « يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ».

" الخطاب هنا للمشركين. وهو تقرير لتلك الحقيقة التي يشهدونها عيانا ، وهى أن الهالكين قبلهم من الأمم السابقة ، كثيرون ، وقد ذهبوا وذهبت آثارهم ، وأنهم لن يرجعوا مرة أخرى إلى هذه الدنيا .. فلمَ يشتدُّ حرص هؤلاء المشركين على دنياهم تلك ، التي كل ما فيها باطل وقبض الريح ؟ ألا يفكرون فى حياة أخرى وراء هذه الحياة ، أبقى ، وأعظم ؟ . "

أي ألم يتعظوا بمن أهلك اللّه قبلهم من المكذبين للرسل كعاد وثمود ، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا ، خلافا لما يزعم الدّهرية الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله : وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ، وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ .. [الجاثية ٤٥/ ٢٤].

ثم أعلمهم أيضا بوجود الحساب والعقاب في الآخرة بعد عذاب الدنيا ، فقال تعالى : « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ ».

"« إن » هنا نافية بمعنى « ما » و« لما » بمعنى إلّا ، أي ما كلّ إلا جميع محضرون لدنيا .. وهذا مثل قوله تعالى : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ ». والمعنى ، أنه إذا كانت القرون الكثيرة التي هلكت لم ترجع إلى الدنيا مرة أخرى. فإن لها رجعة إلى اللّه .. وحضورا بين يديه .. فكل من هلك من الناس راجع إلى اللّه ، للمساءلة ، والجزاء ..

وفى قوله تعالى : « مُحْضَرُونَ » ـــ إشارة إلى أن هناك قوة تستدعيهم للحضور بين يدى اللّه ، وأن ذلك ليس عن اختيار منهم ، ولو كان ذلك كذلك لكان للكافرين وأهل الضلال مهرب إلى عالم الفناء الأبدي ، حيث يذهبون ولا يعودون ، كي يفلتوا من العذاب الأليم.

وإذا كان الحديث هنا عن المجرمين ، فقد كان قوله : « مُحْضَرُونَ » مناسبا لحالهم ، التي هم فيها ، والتي يمنون النفس بأن لارجعة إلى حياة بعد الموت ، كما يقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » (٢٩. الأنعام).

أما إذا كان الحديث عامّا إلى الناس جميعا ، مؤمنين وكافرين ، فأكثر ما يجيء الحديث عن البعث بالرجعة إلى اللّه ، كما يقول سبحانه : « إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى » (٨ : العلق).

وكما يقول سبحانه : « كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ » (٩٣ : الأنبياء) .. والرجوع هنا ، هو عودة إلى المبدأ الذي بدأت منه رحلة الحياة .. حيث كانت الحياة من عند اللّه ، ثم رجعت إليه .."

وهذا دليل على أنه ليس من أهلكه اللّه تركه ، بل بعده جمع وحساب ، وحبس وعقاب ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، كما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تُركنا لكانَ المَوْتُ راحَةَ كُلِّ حَيٍّ
ولكنا إذا متنا بُعثنا ونُسأل بعد ذا عن كل شي[٦٥]

ومضات

فأما الطغيان فكان أهون على اللّه من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره. فهو ضعيف ضعيف : «وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ. وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ. إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ» ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم ، تهوينا لشأنهم ، وتصغيرا لقدرهم. فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم .. ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل!

---

[٦٥] - جميع دواوين الشعر العربي على مر العصور ــ محتويات موقع أدب - (١٢ / ١٦٧) والمحاسن والمساوئ - (١ / ١٤٤) وصيد الخاطر - (١ / ٥٧) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - (٦ / ٣٢٦)

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب والمثل الذي ضربه لهم في قصة أصحاب القرية المكذبين وما انتهى إليه أمرهم «فَإِذا هُمْ خامِدُونَ» .. يبدأ الحديث في هذا الدرس بالتعميم في موقف المكذبين بكل ملة ودين ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون ، وينادي على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين ، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين : «وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..

ثم يأخذ في استعراض الآيات الكونية التي يمرون عليها معرضين غافلين وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم وفي تاريخهم القديم .. وهم مع هذا لا يشعرون وإذا ذكروا لا يذكرون : «وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ» .. وهم يستعجلون بالعذاب غير مصدقين : «وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهدا مطولا من مشاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الذي به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون.

«يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ! ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ. أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ؟ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..

والحسرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئا حيالها ، سوى أن يتحسر وتألم نفسه. واللّه سبحانه وتعالى - لا يتحسر على العباد ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم! يا

حسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها. ويفتح اللّه لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع اللّه : «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» ..

«أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ» ..

ولقد كان في هلاك الأولين الذاهبين لا يرجعون ، على مدار السنين وتطاول القرون. لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر. ولكن العباد البائسين لا يتدبرون. وهم صائرون إلى ذات المصير. فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف؟! إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع. فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعا في ذات الطريق؟ والغرور يملي له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمي لا يبصرون! وإذا كان الهالكون الذاهبون لا يرجعون إلى خلفائهم المتأخرين ، فإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حساب اللّه بعد حين ..«وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..[٦٦]

وقال دروزة : " الآيات متصلة بالسياق السابق اتصالا تعقيبيا كما هو المتبادر. وهو ما جرى عليه النظم القرآني عقب القصص. وقد احتوت

---

[٦٦] - في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٦٤

تنديدا بالناس الذين لا تؤثر فيهم المواعظ والأمثال وما كان من إهلاك اللّه للأقوام السابقة فيقفون من رسل اللّه كلما جاء رسول موقف الاستهزاء والتكذيب. وتوكيدا بأن الناس جميعهم محضرون أمام اللّه ومجزيون عن أعمالهم.

والتعقيب مؤثر نافذ كما هو واضح."[٦٧]

ما ترشد إليه الآيات

دلت الآيات على ما يأتي :

١ - إن تكذيب الرسل ما جاؤوا به من الحق يستدعي مزيد الألم والندامة والحسرة.

٢ - لا رجعة لأحد إلى الدنيا بعد الموت أو الإهلاك.

٣ - إن يوم القيامة يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب الدائم.

٤- مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك أهل أنطاكية بصيحة واحدة .

٥- إبداء التحسر على العباد من أنفسهم إذ هم الظالمون المكذبون فالحسرة منهم وعليهم .

٦- حرمة الاستهزاء بما هو من حرمات الله تعالى التي يجب تعظيمها .

٧- طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم ، والعاقل من اعتبر بغيره .[٦٨]

---

[٦٧] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٢٨)

[٦٨] - انظر أيسر التفاسير للجزائري - (٣ / ٣٥٤)

أدلة القدرة الإلهية على البعث وغيره

قال تعالى :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٣٣ ... وَآيَةٌ لَهُمُ ... دلالة لهم على إحياء الموتى

٣٤ ... فَجَّرْنَا فِيهَا ... شققنا الأرض بالعيون السارحة (الأنهار)

٣٥ ... وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِم ... غرسوه ونصبوه

٣٦ ... خَلَقَ الأَزْوَاجَ ... خلق الأصناف الذكر والأنثى

٣٦ ... وَمِمَّا لايَعْلَمُونَ ... من مخلوقات شتى لا يعرفونها

٣٧ ... نَسْلَخُ ... نزيل النهار عن الليل - نزيل الضوء من مكانه (الليل هو الأصل والنهار عارض)
٣٨ ... لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ... لأجل لها لا تعدوه (حين تطلع الشمس من مغربها)
٣٩ ... قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ... قدر سيره منازل ومسافات
٣٩ ... العُرْجُونِ القَدِيمِ ... أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى
٤٠ ... فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ... يدورون في فلك السماء
٤١ ... حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ... أولاد قوم نوح
٤١ ... فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ ... في السفينة المملوءة (سفينة نوح)
٤٢ ... وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِّثْلِهِ ... السفن جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها
٤٣ ... فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ ... فلا مغيث لهم من الغرق

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى ما يدل على الحشر بإحضار جميع الأمم إليه يوم القيامة للحساب والجزاء ، ذكر ما يدل على إمكان البعث بإنبات النبات من الأرض الجدباء بالمطر ، وإيجاد البساتين وتفجير الأنهار ، لتوفير سبل المعاش بها ، مما يستدعي شكرهم على تلك النعم.

وبعد بيان أحوال الأرض التي هي المكان الكلي ، ذكر أربع آيات دالة على قدرته العظيمة من أحوال الأزمنة ، وهي تعاقب الليل والنهار ،

ودوران الشمس ، ومسير القمر في منازله ، وتخصيص مدار مستقل لكل من الشمس والقمر.

ثم أردف ذلك بدليل آخر دال على القدرة المقترنة بالرحمة وهو تنقل الأولاد والأجيال في السفن العابرة مياه البحار.[٦٩]

التفسير والبيان :

قوله تعالى :« وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ».

" أي ومن الأدلة على قدرتنا على البعث إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها بإنزالنا الماء عليها ، فتهتز وتربو وتنبت نباتا مختلفا ألوانه وأشكاله ، وتخرج حبا هو قوت لكم ولأنعامكم ، وبه قوام حياتكم."

"وهذا شاهد يشهد للمكذبين بالبعث ، بأنه أمر ممكن ، وإن إنكارهم له يقوم على فهم خاطئ لقدرة اللّه .. فلو أنهم نظروا إلى هذه الأرض الميتة ، وكيف يحيى اللّه مواتها ، ويبعث فيها الحياة ، ويخرج من أحشائها صورا لا حصر لها من الكائنات الحية ــ لو نظروا إلى هذا لرأوا أن بعث الأجساد الهامدة لا يختلف فى شىء ، عن بعث الحياة فى الأرض الجديب.

وقوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ » مبتدأ وخبر ، وقدم الخبر « آية » على المبتدأ « الأرض » للإلفات إليه ، لأنه الآية المراد النظر فى وجهها ، وأصل النظم : « والأرض الميتة آية لهم » وقوله تعالى : «

---

[٦٩] – انظر تفسير الشيخ المراغى ــ موافقا للمطبوع – (٢٣ / ٦)

أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » هو بدل من الأرض الميتة .. وهو بيان لها ، يكشف عما فى كيان هذه الآية التي تخرج من الأرض .. والحبّ ، هو ما يخرج من نبات البرّ ، والشعير والأرز ، ونحوها.."

قوله تعالى:« وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ » أي وأوجدنا في الأرض التي أحييناها بساتين مشجرة من نخيل وأعناب وغيرها ، وجعلنا فيها أنهارا موزعة في أماكن مختلفة ، يحتاجون إليها. وخصص النخيل والأعناب بالذكر من بين سائر الفواكه ، لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ، ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة خلافا لغيرهما ، ولأنهما أعم نفعا.

قوله تعالى : « لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ » أي إن القصد من إنشاء الحب والجنات أن يأكل المخلوقون من ثمر المذكور من النخيل والأعناب ، ويأكلوا مما صنعته أيديهم من تلك الغراس والزروع أو الحبوب والثمار ،كالعصير والدبس ونحوهما ، وما ذاك كله إلا من رحمة اللّه تعالى بهم ، لا بقدرتهم وقوتهم ، فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟! وهذا أمر بالشكر من طريق إنكار تركه.

" يمكن أن تكون اللام فى قوله تعالى : « لِيَأْكُلُوا » للتعليل ، أي أحيينا الأرض ، وأنبتنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، ليكون ذلك نعمة من نعمنا عليهم ، لحفظ حياتهم ، بالأكل من ثمرات هذه الجنات ..

ويمكن أن تكون اللام للأمر ، وفى هذا الأمر دعوة لهم إلى الأكل من تلك المائدة التي مدها اللّه للعباد ، وجعل عليها ما تشتهي الأنفس من

طيبات ـــ وفي هذا الأمر إلفات لهم إلى هذا الإحسان ، وذلك الفضل من اللّه ، وإلى ما ينبغى للّه من شكر وحمد ، وهذا مثل قوله تعالى : « الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ .. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى » (٥٣ ـــ ٥٤ : طه) والضمير فى ثمره ، يعود إلى النخيل ، لأنه المقدم رتبة على العنب ، وهو أكثر أنواعا وألوانا منه ، فلا يعدو أن يكون العنب لونا من ألوان الثمر ـــ وقوله تعالى : « وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » يمكن أن تكون الجملة معطوفة على قوله تعالى : « مِنْ ثَمَرِهِ » أي ليأكلوا من ثمره من غير صنعة ، وليأكلوا ما عملته أيديهم من هذا الثمر ، وصنعته ..

ويمكن أن تكون الجملة حالية ، والواو واو الحال ، وما نافية .. ويكون المعنى ، ليأكلوا من ثمر هذا الشجر ، والحال أنه لم تعمله أيديهم ، ولم يكن فى قدرتهم أن يخرجوا شجرة منه ، أو أن يصنعوا ثمرة من هذا الشجر."

وقوله مِنْ ثَمَرِهِ عائد إلى ما ذكر قبل ذلك ، وقال الرازي : المشهور أنه عائد إلى اللّه. وقوله : وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ يشمل في رأي الرازي الزراعة والتجارة.

ولما أمرهم تعالى بالشكر ، وشكر اللّه بالعبادة ، نبّه إلى أنهم لم يقتنعوا بالترك ، بل عبدوا غيره ، وأتوا بالشرك ، فقال: «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ »

" هو تسبيح بحمد اللّه ، وتتريه له عن الشريك والولد ، وتمجيد لجلاله وقدرته .. وهذا التسبيح والحمد ، بلسان الوجود كله. وأنه إذا خرست ألسنة الضالين والمكذبين أن يسبحوا بحمد اللّه ، وأن يترهوه ويمجدوه ، فإن الوجود كلّه لسان تسبيح ، وتتريه ، وتمجيد للّه رب العالمين : « الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ » فالمخلوقات كلها من أزواج ، هى الذكر والأنثى .. كما فى عالم الأحياء من حيوان ، ونبات ، وهى الشيء ومقابله ، كما فى عالم المعاني. كالصدق والكذب ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والضلال والهدى ... "

والخلاصة : أن خالق هذا الخلق العظيم من إنسان وحيوان ونبات وخالق أشياء لا نعلمها متره عن الشريك والنظير ، قادر على كل شيء ، وفي الآية الأمر بالتتريه عما لا يليق باللّه تعالى ، كالأمر بالشكر في الآية المتقدمة.

وبعد الاستدلال على إمكان البعث والحشر بأحوال الأرض المكانية ، ذكر تعالى أدلة أربعة من أحوال الأزمنة ، فقال :

١ -« وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ » وسلخ النهار من الليل ، كشطه عنه ، وإزالة القشرة النورانية التي تكسوه ، كما يكسو الجلد الحيوان .. فإذا سلخت هذه القشرة النورانية عن كيان الكائنات ، سادها الظلام ..وفى قوله تعالى : « نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ » ــ إشارة إلى حركة انسحاب النور ، بحركة الأرض ، ودورانها حول

الشمس ، فينسلخ النور شيئا فشيئا عن الأماكن التي تطلع عليها الشمس ،وذلك كما يسلخ الجلد عن الحيوان ، شيئا فشيئا . لا دفعة واحدة .."

أي ومن أدلة قدرته تعالى العظيمة : خلق الليل والنهار ،وتعاقب الليل والنهار دائبين ، فيترع النهار من الليل فيأتي بالضوء وتذهب الظلمة ، ويترع الليل من النهار ، فيصبح الخلق في ظلمة ويذهب الضوء ، وهكذا يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تعالى : يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً [الأعراف ٧/ ٥٤] نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، فتشرق الشمس على نصف الكرة الأرضية ، وتغيب عن النصف الآخر ، وفي كل من الظلمة والنور نفع وخير ، ففي الظلام ترك العمل وسكون النفس والراحة من العناء ، وفي النور متعة ولذة وحركة وعمل من أجل كسب الرزق.

وقوله فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ أي داخلون في الظلام ، وإذا للمفاجأة ، أي فهم داخلون في الظلمة مفاجأة وبغتة ، لا يد لهم بعدئذ ، ولا بد من الدخول فيه.

"وفيه إشارة إلى أن كل إنسان يكتسي من النور حلة ، فإذا سلخت عنه صار جسما معتما مظلما ، وأصبح قطعة من هذا الظلام ، تجتمع قطعه بعضها إلى بعض ، فإذا هى الليل .."

٢ - «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »

" فهذه الشمس تسير في مدار محدود لها ، وتتحرك فى فلك لا تتعداه ولا تخرج عنه .. وذلك بتقدير « العزيز » ذي العزة والسلطان « العليم » الذي تجرى أحكامه ومقاديره بعلم نافذ إلى كل شيء ، متمكن من

كل كبيرة وصغيرة فى هذا الوجود.وجريان الشمس ، هو حركتها فى فلكها المرسوم لها. وهى تقطع دورة هذا الفلك فى سنة كاملة ، وفى سرعة مذهلة."

أي وآية مستقلة دالة على قدرته تعالى : دوران الشمس في فلكها إلى نهاية مدارها ، وذلك الدوران تقدير من اللّه القاهر الغالب كل شيء ، المحيط علمه بكل شيء. وهناك قولان للمفسرين في تفسير المستقر :

الأول – أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي وجميع المخلوقات تحت العرش.

والثاني – أن المراد مستقرها الزماني وهو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة[٧٠].

وقد أثبت علماء الفلك أنه زيادة على دوران الشمس الظاهري وسط النجوم بسبب دوران الأرض حول الشمس مرة في السنة ، للشمس حركتان أخريان: دورة حول محورها مرة في كل ست وعشرين يوما تقريبا ، ودورة مع توابعها من الكواكب السيارة حول مركز النظام النجومي بسرعة تقدر بنحو مائتي ميل في الثانية. والمستقر في رأي العلماء في الحالة الأولى : هو المحور الثابت ، وفي الثانية : هو مركز النظام النجومي بأسره.

٣ – « وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »

---

[٧٠]– تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٧١ وما بعدها.

" أي أن القمر يأخذ كل ليلة مترلا من الأرض ، على مدى شهر قمرى ، ففى أوسط منازله يبدو قمرا منيرا ، يغمر نور الشمس وجهه كله المواجه للأرض ، المتوسطة بينه وبين الشمس ، فيرى بدرا كاملا ، ثم يرجع إلى الوراء مترلة كل ليلة ، وذلك لبطء دورانه عن دوران الأرض ، فيقلّ مع كل ليلة أو مترلة ، الوجه المقابل منه للشمس ، ويظل يتناقص شيئا فشيئا مدة نصف شهر قمرى ، حتى يكون وجهه المواجه للأرض متوسطا بين الأرض والشمس ، وهنا يكون وجهه المواجه للشمس مضيئا بضوئها ، على حين يكون وجهه المواجه للأرض معتما ، فإذا نزل مترلته فى آخر ليلة لم ير من وجهه شيء ، وسمى محاقا ، لأن نوره الذي كان يبدو منه قد محق .. ثم يبدأ يولد من جديد .. فإذا كانت الليلة الأولى أو المترلة الأولى لمولده ، لم ير منه إلا قوس صغير ، أشبه بقلامة الظّفر ، ويسمى هلالا ، غائرا فى الشفق ، فيختلط الضوء القليل الذي يبدو منه بحمرة الشفق ، فيكون له تلك الصورة التي صورها له القرآن الكريم أدق تصوير وأروعه ، حين شبهه بالعرجون القديم ..

والعرجون ، هو عذق النخلة ، الذي يحمل التمر ، ومنه تتدلى عناقيد التمر ، ولونه أصفر ، فإذا جفّ ، وطال عليه الزمن تقوس شكله وصار لونه ضاربا إلى الحمرة الداكنة .. وهذه التحركات والتغيرات التي تظهر على وجه القمر ليلة بعد ليلة ، جديرة بأن تستثير التفكير والتأمل ، وأن تدعو العقل إلى النظر فيما وراء هذه المنظر الظاهر للقمر ، إلى وضعه فى المجموعة الشمسية ، وإلى صلته بالأرض ، وإلى إمكان الوصول إليه ،

ولو على سبيل الفرض أولا ، ثم اتخاذ الأسباب التي يمكن تحقيق هذا الفرض بها .. إن الملاحظة للشيء ، هى الطريق الطبيعي للكشف عن حقيقته .. وليس مثل هذا العرض الذي عرضه القرآن الكريم للقمر داعية إلى الملاحظة والتأمل ، لو أن ذلك وجد هما متطلعة ، وعزائم جادة ..!!"

أي جعل اللّه للقمر منازل يسير فيها سيرا آخر ، وهي ثمانية وعشرون مترلا ذكرناها ، يترل كل ليلة في واحد منها بمعدل ١٣ درجة في اليوم ، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ، وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يوما ، فإذا صار القمر في آخرها دق وصغر واصفر وتقوس ، وعاد إلى أولها ، حتى صار كالعرجون القديم : وهو الغصن الذي عليه طلع النخلة ، وهو أصفر عريض يعوجّ ، ويقطع منه الشماريخ ، يبقى على النخل يابسا.

ويستدل بمنازل القمر على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال عز وجل : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ : هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ [البقرة ٢/ ١٨٩] وقال تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً ، وَالْقَمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ [يونس ١٠/ ٥] وقال تبارك وتعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا [الإسراء ١٧/ ١٢]. والشمس تطلع كل يوم ، وتغرب في آخره ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء ، يطول بسبب ذلك

النهار ، ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار. وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور ، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ، ويرتفع مترلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء مقتبسا من الشمس ، حتى يتكامل في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم – عرجون النخل.

وعلماء الفلك قسموا النجوم التي تقع حول مدار القمر ثمانيا وعشرين مجموعة تسمى منازل القمر. وقد كان العرب يعرفون بها الأنواء (أي الأمطار) ، ويقيسون بالنسبة إليها مواقع الكواكب السيارة ومنها الشمس.

٤ – « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »

" أي أن من قدرة اللّه سبحانه وتعالى ، ومن إحكام علمه ، أن أجرى هذه العوالم بعلمه ، وسخّرها بقدرته ، وأقامها على نظام محكم ، وأجراها فى مجار لا تتعداها .. فلا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يأخذ بعضها من بعض وضعا غير الذي أقامه اللّه فيه .. فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر. فهى مع سرعتها المذهلة ، التي تبلغ ألوف المرّات بالنسبة لسرعة القمر فإنها لا تدركه ..فهى لها فلك تدور فيه ، كما للقمر فلكه الذي يدور فيه ..

وكما أن الشمس لا تدرك القمر ، كذلك الليل لا يسبق النهار ، إنهما يجريان بحيث يتبع أحدهما الآخر ، دون أن يسبقه .. « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » ، .

وجعل الليل وراء النهار ، لأن النهار أسبق من الليل هى دورة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق .. فالأرض فى دورانها حول نفسها من الغرب إلى الشرق ، إنما تجرى نحو النور ، ومن وراء النور الظلام .. فالنور دائما أمام الظلام ، وهما معا فى حركة وجريان. فالآية الكريمة تشير إلى حركة الأرض وإلى دورانها حول نفسها من الغرب إلى الشرق واستعمل مع هذه العوالم ضمير العقلاء ــ إشارة إلى هذا النظام المحكم الممسك بها ، والذي يقيمها على طريق مستقيم ، كما يقيم العقل السليم صاحبه على طريق مستقيم .. "

أي لا يصح ولا يسهل لكل من الشمس والقمر أن يدرك أحدهما الآخر ، لأن لكل منهما مدارا مستقلا ، لا يجتمع مع الآخر فيه ، ولأن الشمس تسير مقدار درجة في اليوم ، والقمر يسير مقدار (١٣) درجة في اليوم.

ولا تسبق آية الليل وهي القمر آية النهار وهي الشمس ، لأن لكل منهما مجالا وسلطانا ، فسلطان الشمس ومجالها بالنهار ، وسلطان القمر بالليل.

وكل من الشمس والقمر والأرض يسبح ويدور في فلكه في السماء ، كما يسبح السمك في الماء ، فالشمس تسير في مدار لها نصف قطره (٩٣) مليون ميل ، وتتم دورتها في سنة ، والقمر يدور حول الأرض كل شهر في مدار نصف قطره (٢٤) ألف ميل ، والأرض تدور حول الشمس في سنة ، وحول نفسها في يوم وليلة.

وهذا دليل على أن اللّه جعل لكل من الشمس والقمر والأرض مدارا مستقلا يدور فيه ، فلا يحجب أحدهما ضوء الآخر إلا نادرا حينما يحدث كسوف الشمس أو خسوف القمر.

وبعد بيان الدليل المكاني وهو الأرض والأدلة الزمنية الأربعة المتقدمة ، أتى تعالى بدليل آخر على قدرته ، وهو تسيير الإنسان في البحر كما يسير في البر ، كما قال تعالى : وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [الإسراء ١٧/ ٧٠] وقال هنا : « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ». أي ومن دلائل قدرته ورحمته تبارك وتعالى : تسخيره البحر ليحمل السفن ، وركوب الذرية ، أي الأولاد في السفن المملوءة بالبضائع التي ينقلونها من بلد إلى آخر ، لتوفير القوت والمعاش ،كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ، لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [لقمان ٣١/ ٣١].

وقيل : الذرية : آباؤهم الذين حملوا في سفينة نوح عليه السلام ، وهي السفينة المملوءة بالأمتعة والحيوانات التي أمره اللّه تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، حفاظا على أصول المخلوقات. والمعنى : أن اللّه حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح.

"" وفى الإشارة إلى حمل ذرياتهم دون حمل آبائهم إلفات إلى ما تحمل الفلك لهم من فلذات أكباد ، ونفائس أموال وأمتعة ، فتحفظها ، وتصل بها إلى غايتها .. وفى هذا ما يريهم فضل اللّه عليهم ، وإحسانه بهم ، فقد لا يرى الإنسان فضل النعمة ، ولا يقدرها قدرها إذا هى لبسته هو ، فإذا رآها فى غيره عرف لها قدرها ، وذكر فضلها .."

"قوله تعالى : « وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ » معطوف على قوله تعالى : « حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ » أي وآية لهم أنا خلقنا لهم من مثل هذا الفلك ،مراكب يركبونها فى البر ،وهى الإبل التي تسمى سفائن الصحراء ، والخيل ، والبغال والحمير ، وغيرها مما يركب ، ويحمل عليه .."

لكن قال الرازي : الضمير في مِثْلِهِ عائد إلى الفلك ، على قول الأكثرين ، فيكون هذا كقوله تعالى : وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ [ص ٣٨/ ٥٨] وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود في زمانهم ، وليس المراد الإبل.

ويؤيد هذا قوله تعالى هنا : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ. ولو كان المراد الإبل ، لكان قوله : وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ فاصلا بين متصلين.

ويحتمل أن يعود الضمير إلى معلوم غير مذكور تقديره : من مثل ما ذكرنا من المخلوقات ، مثل قوله تعالى هنا : لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ [٧١] وعلى هذا ، الآية تشمل كل وسائل النقل الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات. ونظير الآية قوله تعالى : وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ [النحل ١٦/ ٨].

ودليل رحمته ولطفه تعالى حفظ الركاب في تلك الوسائط ، فقال : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ، فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ، وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ " أي أنه إذا كان من قدرة اللّه أن سخّر الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، فلا يغرق راكبوهم فإن من قدرته سبحانه أن يغرق هذه السفن ، بمن فيها من أولاد وأموال

---

[٧١]- تفسير الرازي : ٢٦/ ٨١ ، تفسير الألوسي : ٢٣/ ٢٧

، فلا يجدون من يسمع لهم صراخا ، أو يستجيب لهم ، أو يقدر على إنقاذهم إن سمع واستجاب .. فهم هلكى لا محالة ، إلّا أن تتداركهم رحمة اللّه ، وإلا أن تكون لهم بقية من أجل .."

فقوله تعالى : « إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ » استثناء من قوله تعالى : « فَلا صَرِيخَ لَهُمْ » أي لا ينقذهم منقذ أبدا إلا رحمة اللّه ، وما لهم من أجل لم ينته بعد.."

إِلَّا هنا : استثناء منقطع ، تقديره : ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونحفظكم من الغرق ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ، ونمتعكم بالحياة الدنيا إلى وقت معلوم عند اللّه عز وجل ، وهو الموت.

ومضات

إنهم يكذبون الرسل ، ولا يتدبرون مصارع المكذبين ، ولا يدركون دلالة كونهم يذهبون ولا يرجعون.

والرسل إنما يدعونهم إلى اللّه. وكل ما في الوجود حولهم يحدثهم عن اللّه ، ويدل عليه ويشهد بوجوده. وهذه هي الأرض القريبة منهم ، يرونها ميتة لا حياة فيها ، ولا ماء ينشئ الحياة ثم يرونها حية تنبت الحب ، وتزدان بالجنات من نخيل وأعناب ، وتتفجر فيها العيون ، فتجري بالحياة حيث تجري.

والحياة معجزة لا تملك يد البشر أن تجريها إنما هي يد اللّه التي تجري المعجزات ، وتبث روح الحياة في الموات. وإن رؤية الزرع النامي ، والجنان الوارفة ، والثمر اليانع ، لتفتح العين والقلب على يد اللّه المبدعة ، وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور ، وتنضر العود

المستشرف للشمس والضياء ، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار ، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة ، وتهيئها للجني والقطاف .. «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ» .. ويد اللّه هي التي أقدرتهم على العمل ، كما أقدرت الزرع على الحياة والنماء! «أَفَلا يَشْكُرُونَ؟».

ويلتفت عنهم بعد هذه اللمسة الرفيقة ليسبح اللّه الذي أطلع لهم النبت والجنان ، وجعل الزرع أزواجا ذكرانا وإناثا كالناس وكغيرهم من خلق اللّه الذي لا يعلمه سواه : «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ» ..

وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها وفي موضعها وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود. حقيقة وحدة الخلق .. وحدة القاعدة والتكوين .. فقد خلق اللّه الأحياء أزواجا. النبات فيها كالإنسان. ومثل ذلك غيرهما .. «وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ». وإن هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة. التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسمات ، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا اللّه ..

ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد! وقد أصبح معلوما أن الذرة - أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان! كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية. تتألف من نجمين مرتبطين يشد بعضهما بعضا ، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة! تلك آية الأرض الميتة تنبثق فيها الحياة .. ومنها

إلى آية السماء وما يتعلق بها من ظواهر يراها العباد رأي العين ، ويد اللّه تجريها بالخوارق المعجزات : «وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» ..

ومشهد قدوم الليل ، والنور يختفي والظلمة تغشى .. مشهد مكرور يراه الناس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة (فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهرا قرب القطبين في الشمال والجنوب) وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير.

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبير فريد. فهو يصور النهار متلبسا بالليل ثم ينزع اللّه النهار من الليل فإذا هم مظلمون. ولعلنا ندرك شيئا من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته.

فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس فإذا هذه النقطة نهار حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ولفها الظلام - وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام. فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير.

«وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها» ..

والشمس تدور حول نفسها. وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها. ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة في مكانها. إنما هي تجري. تجري فعلا. تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلا في الثانية! واللّه - ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها - يقول : إنها تجري لمستقر لها. هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه. ولا يعلم موعده سواه.

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه. وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء ، لا يسندها شي ء ، ندرك طرفا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم : «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» ..

«وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» ..

والعباد يرون القمر في منازله تلك. يولد هلالا. ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدرا. ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالا مقوسا كالعرجون القديم. والعرجون هو العذق الذي يكون فيه البلح من النخلة.

والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب : «حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» ..وبخاصة ظل ذلك اللفظ «الْقَدِيمِ». فالقمر في لياليه الأولى هلال. وفي لياليه الأخيرة هلال .. ولكنه في الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة. وفي الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول.

ذبول العرجون القديم! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحي العجيب! والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة. والقلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات واستجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال المدبرة للأجرام بذلك النظام. سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم. فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب ، واستجاشة الشعور ، وإثارة التدبر والتفكير.

وأخيرا يقرر دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة ، ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق : «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» ..

ولكل نجم أو كوكب فلك ، أو مدار ، لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه. والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة. فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال. والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال. وهذه المسافات على بعدها ليست شيئا يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا. وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية.

وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة! (أي إن أقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مائة وأربعة مليون مليون ميل!).

وقد قدر اللّه خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب. ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع - حتى يأتي الأجل المعلوم - فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر. والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه في طريقه ، لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبدا فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه في الجريان! «وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» .. وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح. فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطا سابحة في ذلك الفضاء المرهوب.

وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل ، وهو ينظر إلى هذه الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة. متناثرة في ذلك الفضاء ، سابحة في ذلك الخضم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح وأحجامها الضخمة تائهة في ذلك الفضاء الفسيح!!!

«وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ» ..

إن في السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ، والفلك المشحون السابح في الماء يحمل ذرية بني آدم! مناسبة في الشكل ، ومناسبة في الحركة ، ومناسبة في تسخير هذا وذلك بأمر اللّه ، وحفظه بقدرته في السماوات والأرض سواء.

وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبروها. بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبرا لو فتحوا قلوبهم للآيات.

ولعل الفلك المشحون المذكور هنا هو فلك نوح أبي البشر الثاني الذي حمل فيه ذرية آدم. ثم جعل اللّه لهم من مثله هذه السفن التي تمخر بهم العباب. وهؤلاء وهؤلاء حملتهم قدرة اللّه ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه وتجعل الفلك يعوم على وجه الماء ، بحكم خواص الفلك ، وخواص الماء ، وخواص الريح أو البخار ، أو الطاقة المنطلقة من الذرة ، أو غيرها من القوى. وكلها من أمر اللّه وخلقه وتقديره.

«وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ» .. والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح ، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها. وإلا تدركها رحمة اللّه فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار. والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط ، يدركون هول البحر المخيف وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار. ويحسون معنى رحمة اللّه وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح ، ولا تمسكه يد سواها في أرض أو سماء. وذلك حتى يقضي الكتاب أجله ، ويحل الموعد المقدور في حينه ، وفق ما قدره الحكيم الخبير : «وَمَتاعاً إِلى حِينٍ» .. [٧٢]

[٧٢] – في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٦٧

وقال دروزة : " والآيات استمرار للسياق أيضا. وجملة وَآيَةٌ لَهُمُ موصلة بين الفصل الأول السابق للقصة وبين هذا الفصل كما هو المتبادر. وقد احتوت تنبيها إلى مشاهد كون اللّه ونواميسه ونعمه على خلقه ، وتنديدا بالذين لا يشكرون ولا يرتدعون عن مواقف المكابرة.

وعبارتها واضحة لا تحتاج إلى أداء آخر. وقد جاءت كما يلهمه أسلوبها وفحواها في معرض البرهنة على قدرة اللّه على ما يعدُ الناس ويتوعدهم والتنبيه على أفضال اللّه عليهم ورحمته بهم ، في الأرض والسماء والبحار ، والتنديد بالذين لا يشكرونه ولا يرتدعون عن مواقف المكابرة والجحود ، وإنذارهم بأنه لو شاء لأهلكهم ومنع عنهم خيره وبرّه فلا يجدون لهم مغيثا ولا ناصرا ، وبأنه إذا لم يفعل

ذلك فلا يكون إلّا من قبيل الإمهال إلى حين كأنما يهيب بهم إلى اغتنام الفرصة السانحة قبل نفاد صبره وإنزال عذابه فيهم.

والآيات قوية نافذة. موجهة إلى القلب والعقل بسبيل ما جاءت من أجله من التذكير والعظة والبرهنة والإنذار.

ومع وجوب الإيمان بحقيقة ما احتوته الآيات من تقريرات متنوعة فإن أسلوبها وفحواها وجملة وَآيَةٌ لَهُمُ التي بدأت بها وتكررت في مقاطعها قد يفيد أن السامعين كانوا يعرفون ويحسون ويتصورون ما احتوته من مشاهد كونية وأرضية وسماوية وفق ما ذكر فيها. وبهذا تبدو الحكمة في ذلك وتكون الحجة القرآنية مستحكمة في السامعين.

وقال : "لقد علّقنا في سياق تفسير سورة القيامة على ربط بعضهم بين الآية بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (٤) وبين فنّ بصمات الأصابع

الحديث. ونعود إلى التعليق مرة ثانية بمناسبة الآيات التي نحن في صددها والتي يقف بعضهم عندها وعند أمثالها لاستنباط قواعد فنية كونية منها أو تطبيق نظريات علمية عليها وبخاصة في صدد حركات الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار ، والإدلاء بآراء متنوعة هي أدخل في نطاق التكلّف والتزيد بل والغلوّ أكثر منها في نطاق الحقيقة في حين أن الآيات في مجموعها وأسلوبها وروحها تحمل الدليل على أن القصد منها هو لفت نظر الناس جميعا بأسلوب يفهمونه إلى ما يشاهدونه من مظاهر قدرة اللّه وكونه بقطع النظر عما أقام اللّه سبحانه الكون عليه من نواميس ونسب وقواعد دقيقة محكمة النظام مطردة السير والجريان. ونحن نرى في مثل هذه المحاولات إخراجا للقرآن الكريم عن هدفه الوعظي والتذكيري وتعريضا له للتعديل والجرح اللذين يرافقان عادة الأبحاث العلمية على غير طائل ولا ضرورة.

ولقد جاء في سورة يونس في صدد منازل القمر آية تفيد أن اللّه قدّر القمر منازل ليعلم الناس عدد السنين والحساب وهي : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) فإذا لحظنا أن منازل القمر أو دوراته اليومية التي تتبدّل بها صوره كانت هي الوسيلة الممكنة المشاهدة لمعرفة حساب الأيام والأشهر والسنين بالنسبة للسامعين رغم كونها ليست دقيقة تبين لنا أن حكمة التنزيل إنما اقتضت أن يكون الخطاب كما جاء بسبيل تنبيه السامعين إلى نواميس كون اللّه وإثبات وجوده وقدرته على ما هو ملموح بقوة من فحوى السلسلة

التي نحن في صددها وسياق آية سورة يونس المذكورة وأمثالها لأنه كان هو المفهوم من قبل السامعين بمداه ومعناه. وتبين لنا مدى ما في تجاوز هذا النطاق إلى استخراج النظريات الفنية من القرآن أو تطبيقها على الآيات القرآنية من تجوّز وتمحّل وخروج بالقرآن عن نطاق حكمة تتريله.

ونعود إلى التنبيه مرة أخرى في هذه المناسبة إلى أن ما قلناه لا يعني حظر دراسة أسرار الكون على المسلمين بمختلف الوسائل وعلى مختلف المستويات.

فهذا شيء وذاك شيء آخر. بل إن إيذان اللّه تعالى للبشر ومن جملتهم المسلمين أن اللّه سخّر لهم ما في السموات وما في الأرض ليوجب عليهم ذلك لأن الانتفاع بما سخّره لهم اللّه لا يتمّ إلّا به. واللّه تعالى أعلم.

وقال : " وبمناسبة ورود تعبير ذِلكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ نقول إن كثيرا من المسلمين يسوقون هذا التعبير في معرض عقيدة القضاء والقدر وكمستند لها به في حين أنه قد جاء في معرض بيان أن حركة الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار كل ذلك يجري ضمن حساب رباني مقدّر على أحسن أسلوب وأدقّ ترتيب.

وبكلمة أخرى إن كلمة «تقدير» هنا تعني الحساب الدقيق وليس لها صلة بعقيدة القدر ولا يصحّ سوقها في معرض ذلك."[٧٣]

---

[٧٣] – التفسير الحديث لدروزة – (٣ / ٢٩)

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ - من الأدلة الدالة على وجود اللّه وتوحيده وكمال قدرته على البعث وإحياء الموتى وغير ذلك : إحياء الأرض الهامدة بالنبات الأخضر ، وإخراج الحب منه ، الذي هو قوام الحياة وأساس القوت والمعاش.

٢ - ومن الأدلة أيضا خلق بساتين في الأرض من نخيل وأعناب ، وتفجير الينابيع في البساتين للأكل من ثمر ماء العيون ، أو من ثمر المذكور وهو ثمر الجنات والنخيل ، ومن الذي عملته أيدي الناس من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما اتخذوا من الحبوب كالخبز وأنواع الحلويات.

وخصص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنهما أعلى الثمار ، كما تقدم.

٣ - تستوجب هذه النعم شكر الخالق المنعم المتفضل ، وشكره بعبادته ، والإذعان لسلطانه وإرادته.

٤ - يجب تنزيه الخالق عما لا يليق به ، والبعد عن صنيع الكفار الذين عبدوا غير اللّه ، مع ما رأوا من نعمه وآثار قدرته.

٥ - إن آثار قدرة اللّه ومظاهرها في العالم كثيرة ، منها خلق النباتات والثمار المختلفة والألوان والطعوم والأشكال والأحجام صغرا وكبرا. ومنها خلق الأولاد والأزواج أي ذكورا وإناثا ، ومنها خلق أصناف أخرى لا يعلمها البشر في البر والبحر والسماء والأرض.

وإذا كان اللّه قد انفرد بالخلق ، فلا ينبغي أن يشرك به.

٦ - ومن العلامات الدالة أيضا على توحيد اللّه وقدرته ووجوب ألوهيته : تعاقب الليل والنهار وما يتبعهما من ظلمة وضوء لتحقيق مصالح العباد ، وضبط السنين والحساب ، وجريان الشمس لمستقرّ لها هو محورها أو نهاية سيرها يوم القيامة ، وتقدير القمر ذا منازل هي ثمانية وعشرون مترلا ، يترل القمر كل ليلة بمترل منها ، فإذا صار في آخرها ، عاد إلى أوّلها ، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستتر ، ثم يطلع هلالا ، فيعود في قطع الفلك على المنازل ، وهي منقسمة على البروج ، لكل برج مترلان وثلث.

ومنها جعل مدار مستقل وسلطان منفرد لكل من الشمس والقمر والأرض ، فلا يدخل أحدها على الآخر ، وإنما كل من الشمس والقمر والنجوم يجري في فلك خاص به.

٧ - ومن دلائل قدرة اللّه ورحمته : حمل ذرية القرون الماضية والحاضرة والمقبلة في السفن المملوءة بالسلع والأمتعة ، وخلق وسائط أخرى للركوب مماثلة للسفن وهي الإبل سفائن البراري ، ووسائل النقل الحديثة في البر والجو من سيارات وقطارات وطائرات ومناطيد (أو مطاود) ونحوها.

واللّه قادر على إغراق ركاب السفن في البحار ، فيصبحون دون مغيث ولا مجير ولا منقذ مما ألم بهم ، ولكن رحمته تعالى اقتضت إبقاءهم وإنقاذهم ليتمتعوا بمتاع الحياة الدنيوية إلى آجالهم المرسومة ، وأعمارهم المحدودة ، والتمتع إلى حين هو الموت.وقد عجّل اللّه عذاب الأمم

السالفة ، وأخّر عذاب أمة محمد ﷺ ، وإن كذبوه ، إلى يوم القيامة ، تكريما لهذا الرسول ﷺ .

٨- حول سجود الشمس تحت العرش :

عَنْ أَبِى ذَرٍّ – رضى الله عنه – قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِىِّ – ﷺ – فِى الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَقَالَ « يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِى أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ » . قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) » صحيح البخارى.[٧٤]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ، أَنّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : إِنَّهَا تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً فَلا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا : ارْتَفِعِي فَارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً فِي مَطْلِعِهَا فَتَجْرِي لا يُنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا ، فَيُقَالُ لَهَا : اطْلُعِي مِنْ مَغْرِبِكِ ، قَالَ : فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ذَاكَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ .

وفِي رواية عَنْ أَبِي ذَرٍّ ، قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا فَتَسْتَأْذِنُ فِي الرُّجُوعِ فَيُؤْذَنَ لَهَا ، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا : ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ

---

[٧٤] – صحيح البخارى (٤٨٠٢)

فَتَرْجِعُ إِلَى مَطْلِعِهَا فَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا ، ثُمَّ قَرَأَ : {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}[سورة يس آية ٣٨][٧٥]

وَذَكَرَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا أَنَّ أَهْلَ التَّفْسِيرِ وَأَصْحَابَ الْمَعَانِي قَالُوا فِيهِ قَوْلَيْنِ ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ أَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، أَيْ : لِأَجَلٍ أُجِّلَ لَهَا ، وَقَدَرٍ قُدِّرَ لَهَا ، يَعْنِي انْقِطَاعَ مُدَّةِ بَقَاءِ الْعَالَمِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مُسْتَقَرُّهَا غَايَةُ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي صُعُودِهَا وَارْتِفَاعِهَا لِأَطْوَلِ يَوْمٍ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِي النُّزُولِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الشِّتَاءِ لِأَقْصَرِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ " مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ " فَلَا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ لَهَا اسْتِقْرَارٌ مَا تَحْتَ الْعَرْشِ مِنْ حَيْثُ لَا نُدْرِكُهُ وَلَا نُشَاهِدُهُ ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ غَيْبٍ فَلَا نُكَذِّبُ بِهِ وَلَا نُكَيِّفُهُ ، لِأَنَّ عِلْمَنَا لَا يُحِيطُ بِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : أَنَّ عِلْمَ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فِي كِتَابٍ كُتِبَ فِيهِ مَبَادِئُ أُمُورِ الْعَالَمِ وَنِهَايَاتُهَا ، وَالْوَقْتُ الَّذِي تَنْتَهِي إِلَيْهِ مُدَّتُهَا ، فَيَنْقَطِعُ دَوَرَانُ الشَّمْسِ وَتَسْتَقِرُّ عِنْدَ ذَلِكَ فَيَبْطُلُ فِعْلُهَا ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ، الَّذِي بُيِّنَ فِيهِ أَحْوَالُ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ وَآجَالُهُمْ وَمَآلُ أُمُورِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ .

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ : وَفِي هَذَا ـــ يَعْنِي الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ ـــ إِخْبَارٌ عَنْ سُجُودِ الشَّمْسِ تَحْتَ الْعَرْشِ فَلَا يُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِنْدَ مُحَاذَاتِهَا الْعَرْشَ فِي مَسِيرِهَا ، وَالْخَبَرُ عَنْ سُجُودِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ

[٧٥] – مسند أبي عوانة (٢٣٨ و٢٣٩) صحيح

جَاءَ فِي الْكِتَابِ ، وَلَيْسَ فِي سُجُودِهَا لِرَبِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ مَا يَعُوقُهَا عَنِ الدَّأْبِ فِي سَيْرِهَا وَالتَّصَرُّفِ لِمَا سُخِّرَتْ لَهُ . قَالَ : فَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُخَالِفٍ لَمَّا جَاءَ فِي هَذَا الْخَبَرِ مِنْ أَنَّ الشَّمْسَ تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، لِأَنَّ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ نِهَايَةُ مُدْرِكِ الْبَصَرِ إِيَّاهَا حَالَ الْغُرُوبِ ، وَمَصِيرُهَا تَحْتَ الْعَرْشِ لِلسُّجُودِ إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ غُرُوبِهَا فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْخَبَرِ ، فَلَيْسَ بَيْنَهُمَا تَعَارُضٌ وَلَيْسَ . مَعْنَى قَوْلِهِ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ أَنَّهَا تَسْقُطُ فِي تِلْكَ الْعَيْنِ فَتَغْمُرُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي بَلَغَهَا ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي مَسِيرِهِ حَتَّى لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهَا مَسْلَكًا فَوَجَدَ الشَّمْسَ تَتَدَلَّى عِنْدَ غُرُوبِهَا فَوْقَ هَذِهِ الْعَيْنِ ، أَوْ عَلَى سَمْتِ هَذِهِ الْعَيْنِ ، وَكَذَلِكَ يَتَرَاءَى غُرُوبُ الشَّمْسِ لِمَنْ كَانَ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ لَا يَرَى السَّاحِلَ ، يَرَى الشَّمْسَ كَأَنَّهَا تَغِيبُ فِي الْبَحْرِ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ تَغِيبُ وَرَاءَ الْبَحْرِ ، وَفِي هَهُنَا بِمَعْنَى فَوْقَ ، أَوْ بِمَعْنَى عَلَى ، وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ تُبَدَّلُ بَعْضُهَا مَكَانَ بَعْضٍ[٧٦]

وقال دروزة :

" وما جاء في الحديث أمر مغيّب فيجب الوقوف عنده إذا صحّ [٧٧] مع وجوب الإيمان بأنه لا بدّ من أن يكون لصدوره من النبي ﷺ حكمة

[٧٦] – الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ لِلْبَيْهَقِيِّ(٨٠٤ و٨٠٥)

[٧٧] – وطلوع الشمس من مغربها كعلامة من علامات الساعة مماثل لما ذكرته آيات عديدة في سور المزمل والتكوير والقيامة والمرسلات من تبدّل مشاهد الكون عند ما تأزفّ الساعة وتخرب

كشأن حكمة اللّه في الآيات. ولعلّ من هذه الحكمة قصد التنبيه على إحاطة اللّه تعالى وتصرفه المطلق في الكون وفي الشمس التي هي من أعظم مظاهر ومشاهد هذا الكون. واللّه تعالى أعلم."[٧٨]

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية :

" من المعلوم بدلالة المشاهدة علما قطعيا لا شبهة فيه أن الشمس طالعة في كل وقت لا تغيب عن مكان إلا ظهرت في مكان آخر، وهذا لا ينافي سجودها تحت العرش، كما أن سجودها لا يعوقها عن الدأب في مسيرها والتصرف لما سخرت له، لأن الشمس خاضعة لمشيئة الله مثل كل المخلوقات، فتكون في دورانها خاضعة في جميع أحوالها ساجدة تحت العرش. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: ويحتمل أن يكون المراد بالسجود سجود من هو موكل بها من الملائكة، أو تسجد بصورة الحال فيكون عبارة عن الزيادة في الانقياد والخضوع في ذلك الحين. وقال الحافظ ابن حجر في موضع آخر: قال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش أنها تستقر تحته استقرارا لا نحيط به نحن.. وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق عن دورانها في سيرها . اهـــ. وقال الشيخ رشيد رضا : الشمس يصدق عليها أنها ساجدة تحت العرش بالمعنى الذي أثبت القرآن فيه سجود كل شيء لله عز وجل من

الدنيا. وكل هذا مغيّب يجب الإيمان به والوقوف عنده وإيكال حكمته إلى اللّه تعالى. وليس معرفة كنهه والمماراة فيه من ضروريات الدين. واللّه تعالى أعلم.

[٧٨] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٣٠)

الكواكب والشجر والنبات وغير ذلك، وذكرنا توجيها آخر لسجودها وهو أنه تمثيل لخضوعها في طلوعها وغروبها لمشيئة الله تعالى . اهـ."[79]

وقال المنجد :

" أثبت سبحانه وتعالى السجود لكل الكائنات وبين كيفية سجود بعضها وهو بفيء ظلالها ذات اليمين والشمال ، ولا يلزم أن يكون سجودها على سبعة أعضاء إذ هذا خاص بالمسلمين أما سجود بقية الكائنات فهو في كل مخلوق بحسبه ، يؤكد أن هذا السجود يراد به حقيقة السجود أنه ظاهر النص أولا فإذا لم يرد مانع صحيح من حمل الآية على هذا الظاهر وجب الأخذ به ، يؤكده كذلك أن عطف سجود الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب على سجود الملائكة والبشر يدل على حقيقة هذا السجود للكائنات كلها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والسجود من جنس القنوت فإن السجود الشامل لجميع المخلوقات هو المتضمن لغاية الخضوع والذل وكل مخلوق فقد تواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدور على التراب فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ومن الأمم من يركع ولا يسجد وذلك سجودها كما قال تعالى

---

[79] – انظر : الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي – (١ / ١٣٢) (١٩٠) وسئل نفع الله به : إذا غابت الشمس أين تذهب ؟ وفتاوى الأزهر – (٧ / ٣٨٢) –سجود الشمس تحت العرش وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (٩ / ٩٤١) رقم الفتوى ٦١١٠٠ سجود الشمس ونزول الله جل جلاله تاريخ الفتوى : ٠٥ ربيع الأول ١٤٢٦

: (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) وإنما قيل ادخلوه ركعا ومنهم من يسجد على جنب كاليهود فالسجود اسم جنس ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد كما في لفظ القنوت)[٨٠] .

ويقول رحمه الله : (ومعلوم أن سجود كل شيء بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض)[٨١] ،فمما يدخل في هذا السجود كمال خضوع هذه المخلوقات لله وانقيادها له سبحانه وذلها لربوبيته وعزه وسلطانه،يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:(وهو سجود الذل والقهر والخضوع فكل أحد خاضع لربوبيته ذليل لعزته مقهور تحت سلطانه تعالى)[٨٢].

كما أن سجود هذه المخلوقات سجود حقيقي يليق بهذه المخلوقات كل بحسبه فسجود الإنسان لائق به وهو ما كان على الهيئة المعروفة وعلى الأعضاء السبعة وسجود الشمس يليق بها كما صح في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِي اللَّه عَنْه (والآنف الذكر)..فسجودها سجود حقيقي يناسب الشمس لكن كيف تسجد لله تحت العرش ؟

الله سبحانه هو الأعلم بكيفية هذا السجود وظاهر الحديث يأبى أن يكون معنى السجود مجرد خضوعها لأمر الله سبحانه وانقيادها لطاعته بل هو خضوع وذلة وانكسار وانقياد بسجود حقيقي لا نعلم كيفيته ،

---

[٨٠] – جامع الرسائل ١/٢٧.

[٨١] – مجموع الفتاوى ٢١/٢٨٤

[٨٢] – مدارج السالكين ١/١٠٧

وكذا يقال في القمر والشجر والدواب وسائر الكائنات كل له سجود يناسبه ويليق به ، فالواجب على المؤمن أن لا يجعل من جهله بكيفية سجود بعض الكائنات مانعا من التصديق والإيمان بهذا السجود بل الواجب عليه الإيمان بما أخبر الله به من سجود الكائنات له سبحانه والله أعلم "[83].

قلت :

" أجمع العلماء على أن قطعي الوحي لا يتعارض أبداً مع قطعي العقل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء التعارض: كل ما قام عليه دليل قطعي سمعي يمتنع أن يعارضه قطعي عقلي، ومثل هذا الغلط يقع فيه كثير من الناس. انتهى[84]

وبين شيخ الإسلام رحمه الله أنه إن تعارض ظني العقل وظني النقل فالمقدم هو الراجح منهما مطلقاً، وإن كان أحدهما ظنياً والآخر قطعياً فالقطعي هو المقدم مطلقاً.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ هو ثابت في نفس الأمر، سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه.[85]

[83] - فتاوى الإسلام سؤال وجواب - (١ / ٢٩٣٩) سؤال رقم ٢٧٠٣٦- سجود ما في الكون لله تعالى ورد في سورة الحج أية (١٨) سجود الدوآب فما هي كيفية هذا السجود ؟.

[84] - درء التعارض ٨٠/١

[85] - ٨٨/١ من نفس المرجع

وقال : لا يجوز أن يتعارض دليلان قطعيان لا عقليان ولا سمعيان ولا سمعي ولا عقلي، ولكن قد ظن من لم يفهم حقيقة القولين تعارضهما لعدم فهمه لفساد أحدهما.[٨٦]

ولذا.. فلا يمكن أن يحدث تعارض بين حقيقة علمية وخبر شرعي قطعي، وإنما عبرنا بالحقيقة العلمية لتخرج النظرية العلمية والفرضية العلمية، فالنظرية العلمية قابلة للصواب وللخطأ وكذا الفرضية، أما الحقيقة العلمية فلا تقبل التشكيك، وكثير من الناس يأتي إلى بعض النظريات التي مازالت تحت الدراسة و لم يمط عنها اللثام ويجعل بينها وبين نصوص الوحي إشكالات ومعارضات."[٨٧]

---

[٨٦] - نفسه ١/١٧٤

[٨٧] - انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (٤ / ٦٧٢٠) رقم الفتوى ٢٦٥٣٨ لا تعارض بين قطعي الوحي وقطعي العقل تاريخ الفتوى : ١٦ شوال ١٤٢٣

موقف الكفار من تقوى اللّه وآيات اللّه والشفقة على خلق اللّه

قال تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧)

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٤٥ ... اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ... أي من عذاب الدنيا بالإيمان والاستقامة

٤٥ ... وَمَا خَلْفَكُمْ ... من عذاب الآخرة إذا بقيتم على الكفر

٤٦ ... مُعْرِضِينَ ... لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها

المناسبة :

بعد بيان الآيات الدالة يقينا وقطعا على وجود اللّه وتوحيده وقدرته التامة ، أخبر اللّه تعالى أن الكفار مع هذا الدليل القاطع يعرضون عن آيات ربهم ، ولا يعترفون بها ، وشأن العاقل الاقتناع بها ، ولكن هؤلاء لا يتقون اللّه ، ولا يحذرون بأن يصيبهم مثل هلاك الأمم الغابرة ، ولا يفكرون في آيات اللّه ، وليس في قلوبهم رحمة أو شفقة على عباد اللّه ، فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة ، وليسوا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم الماضية ، ولا بما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ، فيقول : وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : « وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ».

" لا تزال الآيات الكريمة ، تلقى المشركين بالوعيد والتهديد ، بعد أن عرضت عليهم من مشاهد قدرة اللّه ما فيه عبرة لمعتبر ، ولكنهم ذوو أعين لا تبصر ، وآذان لا تسمع ، وقلوب لا تلين ..فإذا دعوا إلى أن يتقوا اللّه فيما بين أيديهم من نعم ، يستقبلونها من اللّه ، وما خلفهم من نعم أفاضها اللّه عليهم ، لعلهم ينالون رحمة اللّه ، ويدخلون فى عباده المتقين ــ إذا قيل لهم هذا القول ، لم يقفوا عنده ، ولم يلتفتوا إليه ، ومضوا على ما هم عليه من كفر بنعم اللّه ومحادّة له ..

وجاء القول بصيغة البناء للمجهول « قِيلَ » ، للإشارة إلى أنهم لا يقبلون هذا القول الذي يدعوهم إلى تقوى اللّه ، لا لأن رسول اللّه ﷺ هو الذي يدعوهم إليه ، وإنما لأن طبيعتهم لا تقبله ، من أية جهة تأتهم به ، ومن أي إنسان يدعوهم إليه ..

وحذف جواب الشرط « إذا » لدلالة حالهم عليه .. فهم على إعراض أبدا عن كل خير ، وحق ، وإحسان .. "

وليس إعراضهم مقتصرا على ذلك ، بل هم عن كل آية معرضون ، كما قال تعالى : « وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ ».

" هو مما يشير إلى جواب الشرط فى الآية السابقة .. فهو حكم عليهم بأهم لا يلتقون بآية من آيات رهم ، إلا أعرضوا عنها ، مكذبين بها ، ساخرين منها .."

أي وما تجيء هؤلاء المشركين آية من آيات اللّه على التوحيد وصدق الرسل إلا شأهم الإعراض عنها ، وعدم الالتفات إليها ، وترك التأمل بها ، وعدم الانتفاع بها ، لتعطيل طاقة الفكر والنظر المرشد إلى الإيمان وتصديق الرسول ﷺ .

وفضلا عن سوء الاعتقاد باللّه ورسوله ﷺ ، تركوا الشفقة على خلق اللّه ، كما قال تعالى : « وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ».

وهذه آية من آيات اللّه ، تدعوهم إلى خير ، وإلى بر وإحسان ، بأن ينفقوا مما رزقهم اللّه ــ فماذا كان جواهم على هذه الدعوة من صاحب الأمر ، وصاحب الرزق ؟ . كان جواهم هو : ــ « قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ »..

وهذا جواب خبيث ماكر ، يكشف عن كفر غليظ ..إهم فى سبيل الغلب بالمماحكة والجدل ، يؤمنون باللّه ، ويؤمنون بمشيئته فى خلقه ، وبتصريفه المطلق لكل أمر .. فيقولون ردّا على قول اللّه أو الرسول أو المؤمنين لهم : « أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » ــ يقولون : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ

يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ » إن تلك هى مشيئة اللّه فى هؤلاء الجياع الذين ندعى إلى إطعامهم ..

إن اللّه أراد لهم أن يجوعوا ، ولو أراد أن يطعمهم لأطعمهم .. فإنه قادر ، وخزائنه لا تنفد!! فلم يدعوننا نحن إلى إطعامهم ، وهو القادر ، ونحن العاجزون ، وهو الغنى ونحن الفقراء ؟ إن أنتم أيها المؤمنون « إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » ! لا تعرفون اللّه ، ولا تقدرونه قدره!!.

وهذا الرد من المشركين ، هو ردّ من خذله اللّه ، وأضله على علم .. فهم إذ يدعون إلى الإيمان باللّه ، لا يسمعون ، ولا يعقلون .. وهم إذا دعوا إلى ما تقتضيه دواعى المروءة الإنسانية ، من الإحسان إلى إخوانهم الفقراء ، يقيمون من اللّه ، ومن علمه وقدرته حجة كيدية ، يبطلون بها الدعوة التي يدعون إليها ..ولو أنهم كانوا مؤمنين باللّه ، معترفين بمشيئته فى خلقه ، لاستجابوا لما يدعوهم اللّه إليه ، من الإنفاق فى سبيل اللّه ..وفى الإظهار بدل الإضمار فى قوله تعالى : « قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » بدلا من قالوا ـــ كشف عن الوصف الذي هو ملتصق بهم ، وهو الكفر .."

أي وإذا طلب منهم الصدقة ، وأمروا بالإنفاق مما رزقهم اللّه على الفقراء والمحاويج ،أجابوا المؤمنين استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم : لو شاء اللّه لأغناهم ، ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة اللّه تعالى فيهم.

وكان هذا الاحتجاج باطلا ، لأن اللّه تعالى إذا ملّك عبدا مالا ، ثم أوجب عليه فيه حقا ،فكأنه انتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى

للاعتراض. وقد صدقوا في قولهم : لو شاء اللّه أطعمهم ، ولكن كذبوا في الاحتجاج بذلك.

وقوله : مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ترغيب في الإنفاق ، فإن اللّه رزقكم ، فإذا أنفقتم فهو يخلف لكم الرزق ثانيا كما رزقكم أولا ، وهو أيضا ذم على البخل الذي هو في غاية القبح ، فإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير ، وفي هذا ذم لهم على ترك الشفقة على خلق اللّه.

ومع هذا كله ، عابوا الآمرين لهم بالإنفاق واتهموهم بالضلال ، فقالوا تتمة لكلامهم : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي ما أنتم في أمركم لنا بالإنفاق إلا في خطأ واضح ، وانحراف عن جادة الهدى والرشاد.

وقوله إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا .. يفيد الحصر. وهذا فهم خطأ من المشركين ، لأن حكمة اللّه اقتضت تفاوت الناس في الرزق ، فهو يقبض الرزق عمن يشاء ، ويبسطه لمن يشاء ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ [الشورى ٤٢/ ٢٧] فقد أغنى قوما ، وأفقر آخرين ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالعطاء والشكر : فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى [الليل ٩٢/ ٥ - ١٠].

وقال الطبري : " يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ : أَنْفِقُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ الَّذِي رَزَقَكُمْ ، فَأَدُّوا مِنْهُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِيهِ لِأَهْلِ حَاجَتِكُمْ وَمَسْكَنَتِكُمْ ، قَالَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ وَعَبَدُوا مِنْ

دُونه لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ : أَنُطْعِمُ أَمْوَالَنَا وَطَعَامَنَا مَنْ لَوِ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟

وَفِي قَوْله : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَال مُبِين وَجْهَان : أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُون مِنْ قِيلِ الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ حِينَئِذٍ : مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ فِي قِيلكُمْ لَنَا : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ عَلَى مَسَاكِينكُمْ ، إِلَّا فِي ذَهَابٍ عَنِ الْحَقِّ ، وَجَوْرٍ عَنِ الرُّشْد مُبِينٍ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَتَدَبَّرَهُ ، أَنَّهُ فِي ضَلَال ؛ وَهَذَا أَوْلَى وَجْهَيْهِ بِتَأْوِيلِه . وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قِيلِ اللَّه لِلْمُشْرِكِينَ ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ حِينَئِذ : مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فِي قِيلكُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوِ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ، إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، عَنْ أَنَّ قِيلَكُمْ ذَلِكَ لَهُمْ ضَلَالٌ " قال ابن كثير : " وفي هذا نظر. "[88]

ومضات

إن تلك الآيات بذاتها لا تثير في قلوبهم التطلع والتدبر والحساسية والتقوى. وهي بذاتها كافية أن تثير في القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة وأن تخلطه بهذا الوجود. هذا الكتاب المفتوح الذي تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تدبيره وتقديره. ولكن هؤلاء المطموسين لا يرونها. وإذا رأوها لا يتدبرونها. واللّه – لعظيم رحمته – لا يتركهم مع هذا بلا رسول ينذرهم ويوجههم ويدعوهم إلى رب هذا الكون وبارئ هذا الوجود. ويثير في قلوبهم الحساسية والخوف والتقوى ويحذرهم موجبات الغضب والعذاب ، وهي محيطة بهم ، من

---

[88] – تفسير ابن كثير – (٦ / ٥٨٠)

بين أيديهم ومن خلفهم ، إلا ينتبهوا لها يقعوا فيها في كل خطوة من خطواتهم. وتتوالى عليهم الآيات مضافة إلى الآيات الكونية التي تحيط بهم في حيثما يتجهون. ولكنهم مع هذا يظلون في عمايتهم سادرين : «وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ» ..

وإذا دعوا إلى إنفاق شيء من مالهم لإطعام الفقراء : قالوا ساخرين متعنتين : «أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ؟» ..

وتطاولوا على من يدعوهم إلى البر والإنفاق قائلين : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»! وتصورهم للأمر على هذا النحو الآلي يشي بعدم إدراكهم لسنن اللّه في حياة العباد. فاللّه هو مطعم الجميع ، وهو رازق الجميع. وكل ما في الأرض من أرزاق ينالها العباد هي من خلقه ، فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئا ، وما هم بقادرين على خلق شيء أصلا. ولكن مشيئة اللّه في عمارة هذه الأرض اقتضت أن تكون للناس حاجات لا ينالونها إلا بالعمل والكد وفلاحة هذه الأرض وصناعة خاماتها ونقل خيراتها من مكان إلى مكان ، وتداول هذه الخيرات وما يقابلها من سلعة أو نقد أو قيم تختلف باختلاف الزمان والمكان. كما اقتضت أن يتفاوت الناس في المواهب والاستعدادات وفق حاجات الخلافة الكاملة في هذه الأرض. وهذه الخلافة الكاملة في هذه الأرض. وهذه الخلافة لا تحتاج إلى المواهب والاستعدادات المتعلقة بجمع المال والأرزاق وحدها ، إنما تحتاج إلى مواهب واستعدادات أخرى قد تحقق ضرورات أساسية لخلافة الجنس الإنساني في الأرض ، بينما يفوتها جمع

المال والأرزاق ويعوزها! وفي خلال هذا الخضم الواسع لحاجات الخلافة ومطالبها ، والمواهب والاستعدادات اللازمة لها ، وما يترتب على هذه وتلك من تداول للمنافع والأرزاق ، وتصارع وتضارب في الأنصبة والحظوظ .. في خلال هذا الخضم الواسع المترابط الحلقات لا في جيل واحد ، بل في أجيال متعددة قريبة وبعيدة ، ماضية وحاضرة ومستقبلة.

في خلال هذا الخضم تتفاوت الأرزاق في أيدي العباد .. ولكي لا ينتهي هذا التفاوت إلى إفساد الحياة والمجتمع ، بينما هو ناشئ أصلا من حركة الحياة لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض ، يعالج الإسلام الحالات الفردية الضرورية بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ويكفل طعامهم وضرورياتهم. وبهذا القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء. فقد جعله الإسلام زكاة. وجعل في الزكاة معنى الطهارة.

وجعلها كذلك عبادة. وألف بها بين الفقراء والأغنياء في مجتمعه الفاضل الذي ينشئه على غير مثال.

فقولة أولئك المحجوبين عن إدراك حكمة اللّه في الحياة : «أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ؟» .. وتطاولهم على الداعين إلى الإنفاق بقولهم : «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» .. إن هو إلا الضلال المبين الحقيقي عن إدراك طبيعة سنن اللّه ، وإدراك حركة الحياة ، وضخامة هذه الحركة ، وعظمة الغاية التي تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات ، وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق.

والإسلام يضع النظام الذي يضمن الفرص العادلة لكل فرد ، ثم يدع النشاط الإنساني المتنوع اللازم للخلافة في الأرض يجري مجراه النظيف. ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية.[٨٩]

وقال دروزة : " الآيات متصلة بالسياق واستمرار له كما هو المتبادر. وفي ضمير لَهُمُ هنا دلالة على هذا الاتصال والترابط كما هو كذلك في الآيات السابقة. وعبارتها واضحة. وقد احتوت الآيات الأربع الأولى تقريرات عن واقع أمر الكفار ومبلغ مكابرتهم وجحودهم وغلظ قلوبهم. فهم يؤمرون باتقاء غضب اللّه في الدنيا والآخرة فلا يبالون. وتأتيهم آيات اللّه فيعرضون عنها. ويقال لهم أنفقوا مما رزقكم اللّه فيجيبون ساخرين : إن اللّه لو شاء أن يرزق الفقراء ويطعمهم لما قتّر عليهم وحرمهم ، وإنكم في طلبكم هذا منّا في ضلال مبين ثم يتساءلون تساؤل الساخر المتحدي عن موعد العذاب الذي يوعدون به إن كان ذلك صدقا وحقا.

والآيات قوية التقرير والتنديد والإنذار. وقد احتوت صورا متنوعة لمواقف الكفار من دعوة اللّه وآياته ونبيه. والآية [٤٧] بخاصة تدلّ على أنه كان يقع جدل بين المؤمنين والكفّار في صدد المبادئ التي بشّرت بها الدعوة وآمن بها المؤمنون وأن هؤلاء كانوا يدعون أولئك في جملة ما يدعونهم إليه ويحاجونهم فيه إلى البرّ بالفقراء ويذكرونهم بأن ما في أيديهم من مال إنما هو من رزق اللّه فلا يجوز أن يضنّوا به على

[٨٩] - في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٧٠

المحتاجين من عباده وأن الكفار كانوا يجيبوهم على هذا بخاصة بجواب حجاجي ساخر وطريف يتهربون به مما يطلب منهم. وفي هذا صورة لما كان من تأثر المؤمنين بالدعوة ومبادئها وخاصة البرّ بالفقراء والمعوزين والجهد في نشرها والدعوة إليها ثم صورة لما كان من تأثير ذلك في أغنياء الكفار ، وقد كان هذا الموضوع من أبكر ما بشّر به القرآن ومن أبكر ما أثار حقد الأغنياء والزعماء وحفّزهم إلى التكتل والمعارضة وظلّ كذلك قويا إلى أن أدخله القرآن في نظام الدولة وميزانيتها على ما تلهم آيات أخرى بالإضافة إلى تكراره وتوكيده في مختلف المناسبات والأساليب.

غير أننا نرى هنا أن ننوّه بالمعنى الجليل الذي انطوى في تعبير أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

وننبه على أن هذا قد تكرر كثيرا في سور مكية ومدنية بأساليب متنوعة. وجاء في بعضها بقوة وصراحة أكثر حيث يبدو من هذا حكمة التنزيل في التوكيد عليه لإقراره في الأذهان. من ذلك آية سورة الرعد هذه : وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) وآية سورة إبراهيم هذه : قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) وآية سورة البقرة هذه : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وآية سورة آل عمران هذه : وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ

لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ... [١٨٠] وآية سورة النساء هذه : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (٣٧) وآية سورة النور هذه : وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ ... [٣٣] وآية سورة الحديد هذه : آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)."[٩٠]

ما ترشد إليه الآيات

دلت الآيات على أمور ثلاثة هي :

أولا – إن المشركين قوم تمادوا في الغي والضلال والعناد والكبر ، ولم يتأملوا في أحداث الماضي ، ووقائع الزمان ، وأحوال الأمم التي أهلكهم اللّه بتكذيبهم رسلهم ، ولم ينظروا في مستقبل الحياة الآخرة ، فتراهم إذا قيل لهم : اتقوا اللّه ، لا يتقون.

ثانيا – وهم أيضا شأنهم وديدنهم الإعراض عن آيات اللّه ، والتكذيب لها ، وعدم الانتفاع بها ، لتركهم النظر المؤدي إلى الإيمان باللّه وتصديق الرسول ﷺ .

ثالثا – كما أنهم أخلّوا بتعظيم الخالق ، حرموا العطف والشفقة على الإنسانية ، وانعدمت عندهم عاطفة الرحمة بالمخلوقات ، إذ قيل لهم :

[٩٠] – التفسير الحديث لدروزة – (٣ / ٣٣)

أنفقوا مما رزقكم اللّه ، فبخلوا وتهكموا ، وهو شأن البخلاء في كل عصر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وبَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَلَفَاجِرٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَابِدٍ بِخَيْلٍ، وَأَيُّ دَاءٍ أَوْدَى مِنَ الْبُخْلِ "[91]

وقد بين الله تعالى طبيعة الكفار أيضاً في موضع آخر حيث قال : {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) } [الماعون : ١ - ٣]

والإشارة مشارها إلى هذا الذي يكذب بالدين .. إنه ذلك الذي « يَدُعُّ الْيَتِيمَ » أي يقهره ، ويذله ، وينزع عنه لباس الأمن والطمأنينة إذا وقع ليده ، وعاش فى ظله .. إن اليتيم ضعيف ، عاجز ، أشبه بالطير المقصوص الجناح ، يحتاج إلى اللطف ، والرعاية ، والحنان .. فإذا وقع ليد إنسان قد خلا قلبه من الرحمة ، وجفت عواطفه من الحنان والعطف ـــ كان أشبه بفرخ الطير وقع تحت مخالب نسر كاسر ، فيموت فزعا وخوفا ، قبل أن يموت تمزيقا وهشا ..

وقوله تعالى : « وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ ». أي لا يدعو إلى إطعام المسكين ، ولا يجعل من رسالته فى الناس إطعام الجياع .. فإن من لا يحمل همّ الجياع ، ولا يدعو الناس إلى إطعامهم ، لا يجد من نفسه

---

[91] - شعب الإيمان - (١٣ / ٢٩٣)(١٠٣٥٦) وسنن الترمذى(٢٠٨٨) ضعيف

الدافع الذي يدفعه إلى إطعامهم من ذات يده .. ذلك أن الذي يعرف عنه فى الناس أنه يحضّ على هذه المكرمة وينادى بها فيهم ـــ يستحى أن يدعو إلى فعل ولا يفعله .. وإنك لن تجد بخيلا أبدا يدعو إلى الإحسان ، لأن كلمة الإحسان تفزعه ، حتى لو نطق بها زورا ويهتانا .. فإذا دعا داع إلى الإحسان كان معنى هذا أنه يمكن أن يكون فى المحسنين يوما ما .. وهذا هو السرّ فى احتفاء القرآن الكريم بالحضّ على فعل المكارم ، فمن حضّ على مكرمة ، وجعلها دعوة له ، كان قمينا بأن يكون من أهلها عملا ، بعد أن كان من دعاتها قولا .."[٩٢]

" إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعا بعنف - أي الذي يهين اليتيم ويؤذيه. والذي لا يحض على طعام المسكين ولا يوصي برعايته. فلو صدّق بالدين حقا ، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم ، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين.

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية. واللّه لا يريد من الناس كلمات. إنما يريد منهم معها أعمالا تصدقها ، وإلا فهي هباء ، لا وزن لها عنده ولا اعتبار.

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث في تقرير هذه الحقيقة التي تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل."[٩٣]

---

[٩٢] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١٥ / ١٦٨٥)

[٩٣] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٩٨٥)

وقال تعالى عن طبيعة الكفار أيضاً { إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) }[الحاقة : ٣٣ ، ٣٤]
فهناك تلازم حتمي بينهما .[٩٤]

---

[٩٤] - انظر تفسيرها فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٦٨٣)

إنكار الكفار يوم البعث وبيان أنه حق لا شك فيه

قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٤٨ ... مَتَى هَذَا الوَعْدُ ... استبعاد الكفار لقيام الساعة

٤٩ ... صَيْحَةً وَاحِدَةً ... نفخة الصعق التي يموتون فيها

٤٩ ... و هُمْ يَخِصِّمُونَ ... أي يتخاصمون في البيع والشراء

٥١ ... و نُفِخَ فِي الصُّورِ ... هي نفخة البعث والنشور

٥١ ... الأَجْدَاثِ ... القبور

٥١ ... يَنْسِلُونَ ... يسرعون في الخروج

٥٢ ... مِنْ مَرْقَدِنَا ... يموتون بين النفختين الصعق والبعث

٥٣ ... صَيْحَةً وَاحِدَةً ... نفخة البعث

٥٣ ... مُحْضَرُونَ ... مجموعون محشورون للحساب والجزاء

المناسبة :

بعد بيان إعراض الكفار عن التقوى ، وامتناعهم من الإنفاق ، أبان اللّه تعالى سبب ذلك وهو إنكارهم للبعث ، واستعجالهم له ، استهزاء به ، ثم أوضح أنه حق لا مرية فيه ، وأنه سيأتيهم الموت بغتة ، وهم في غفلة عنه ، وأن البعث أمر سهل على اللّه لا يحتاج إلا إلى نفخة واحدة في الصور.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : وَيَقُولُونَ : « وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »." الوعد : هو يوم القيامة ، الذي يعدهم الرسول به ، ويدعوهم إلى الاستعداد للقائه.وسؤال المشركين عن موعد هذا اليوم ، هو على سبيل التكذيب به ،والإنكار له .. لا سؤال الذي جهل ، ويريد أن يعرف .. ولهذا فهم يعقبون على هذا السؤال بقولهم : « إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ».. وقولهم هذا للنبى ﷺ والمؤمنين معه .. هو قول الشاك فى صدق من يسأله ، بل هو قول من يتهم وينكر."

أي ويقول المشركون استعجالا للبعث استهزاء وسخرية وتهكما بالمؤمنين : متى يأتي هذا الوعد بالبعث الذي وعدتمونا به،وتهددونا به ،إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون؟!

والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين الذين دعوهم إلى الإيمان باللّه وباليوم الآخر ، فأجابهم اللّه تعالى :« ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ »

" أي ما ينظر هؤلاء المشركون المكذبون بيوم القيامة ، إلّا صيحة واحدة تطلع عليهم من حيث لا يحتسبون ، فتأخذهم وهم فى هذا الجدل والاختصام فيما يشغلهم من أمور دنياهم ، وفيما يختصمون فيه مع المؤمنين فى أمر هذا اليوم "

أي ما ينتظرون للعذاب والقيامة إلا نفخة واحدة في الصور ، هي نفخة الفزع التي يموت بها جميع أهل الأرض فجأة ، وهم يختصمون فيما بينهم في البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا أي وهم متشاغلون في شؤون الحياة من معاملة وحديث وطعام وشراب وغير ذلك ، كما قال تعالى : فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [الأعراف ٧/ ٩٥] وقال سبحانه : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [الزخرف ٤٣/ ٦٦].

وقوله جل وعز : إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً هي النفخة الأولى في الصور ، كما قال عكرمة ، ويؤيده ما رواه ابن جرير عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : " لَيَنْفُخَنَّ فِي الصُّورِ ، وَالنَّاسُ فِي طُرُقِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ الثَّوْبَ لَيَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ يَتَسَاوَمَانِ ، فَمَا يُرْسِلُهُ أَحَدُهُمَا مِنْ يَدِهِ حَتَّى يُنْفَخَ فِي الصُّورِ ، وَحَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَنْفُخَ فِي الصُّورِ ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ : مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً . . الْآيَةَ "[٩٥].

[٩٥] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٦٨٠٨) صحيح لغيره

وأخرج البخاري عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه – ﷺ – قَالَ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ، لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهْوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِى فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا »[٩٦]

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهْوَ الْقَتْلُ ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ ، حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِى يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لاَ أَرَبَ لِى بِهِ . وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِى الْبُنْيَانِ ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى مَكَانَهُ . وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ – يَعْنِى – آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا ،

---

[٩٦] – صحيح البخارى (٦٥٠٦) –اللقحة : الناقة ذات اللبن قريبة العهد بالولادة –يليط : يطين ويصلح

فَلاَ يَتَبَايَعَانه وَلاَ يَطْوِيَانه ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَد انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَته فَلاَ يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهْوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِى فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا » .[٩٧]

ثم أبان تعالى سرعة حدوث الموت العام أو الصيحة ، فقال:« فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ».

" أي أن هذه الصيحة التي تنزل بهم ، إنما تأتيهم بغتة ، فلا تدع لهم سبيلا إلى أن يتصرفوا فى شيء مما فى أيديهم ، أو أن يوصوا بشيء منه إلى من يودون إيثاره بشيء مما كانوا يحرصون عليه ، وقد أوشك أن يفلت من أيديهم ، كما لا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم وأموالهم بعد موتهم .. أو أنهم لا يستطيعون أن يرجعوا إلى أموالهم وأهليهم ، إذا جاءهم الموت ، وهم فى مكان بعيد عنهم .. إن الموت لا ينتظرهم لحظة واحدة ، إذا جاء أجلهم .."

ثم أخبر اللّه تعالى عن نفخة ثانية هي نفخة البعث والنشور من القبور،فقال : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ »."

وإذا كان هؤلاء المقبورون من المشركين ،لا يرجعون إلى أهليهم،فإنهم سيرجعون إلى اللّه ، وسيلقون جزاء ما كانوا يعملون .. فكما ماتوا بصيحة واحدة ، فإنهم سيبعثون كذلك بنفخة واحدة."

---

[٩٧] - صحيح البخارى(٧١٢١)

أي ونفخ في الصور نفخة ثانية للبعث والنشور من القبور ،فإذا جميع المخلوقين يخرجون من القبور ،يسرعون المشي إلى لقاءِ ربهم للحساب والجزاء ،كما قال تعالى:يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً،كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج ٧٠/ ٤٣].

ثم ذكر ما يطرأ عليهم بعد البعث من الأهوال والمخاوف فقال تعالى : « قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ ». " وتأخذ المفاجأة المشركين والكافرين ، لأنهم كانوا لا يتوقعون نشورا ، فيفزعهم هذا البعث ، ويتنادون بالويل .. لأنهم لا يدرون ماذا يراد بهم فى هذا العالم الجديد الذي أخذوا إليه ؟ ويأخذهم العجب من تلك اليقظة التي أخرجتهم من هذا النوم الطويل .. « مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا » ؟ ويجيئهم الجواب : « هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ».. هذا ما كنتم به تكذبون!"

أي قال المبعوثون : يا هلاكنا من الذي بعثنا من قبورنا بعد موتنا؟ وهي قبورهم التي كانوا يعتقدون في دار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، وظنوا لما شاهدوا من الأهوال وما استبد بهم من الفزع ، أنهم كانوا نياما.وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. « هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ». أي هذا ما وعد به اللّه وصدق في الإخبار عنه الأنبياء المرسلون ، فهم رجعوا إلى أنفسهم ، فاعترفوا أنهم بعثوا من الموت ، وأقروا بصدق الرسل ، يوم لا ينفع التصديق. فهذا الكلام من قول الكفار ، وهو رأي عبد الرحمن بن زيد ، واختاره الشوكاني وغيره.

واختار ابن جرير وابن كثير أن هذا جواب الملائكة أو جواب المؤمنين ، كقوله تبارك وتعالى : وَقالُوا : يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ. هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [الصافات ٣٧/ ٢٠ - ٢١].

ثم أوضح اللّه تعالى سرعة البعث ، فقال « إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ ».

" «صيحة » خبر كان منصوب ، واسمها ضمير يعود على الصيحة فى قوله تعالى : « ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ».. أي ما كانت الصيحة إلا صيحة واحدة ، أخرجتهم من قبورهم ، ثم جمعتهم فى المحشر بين يدي اللّه .."

أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، فإذا هم أحياء مجموعون لدينا بسرعة للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات ٧٩/ ١٣ - ١٤] وقال عز وجل : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ [النحل ١٦/ ٧٧].

وأردف بعدئذ ما يكون في ذلك من القضاء العادل ، فقال تعالى : « فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » "أي ففي هذا اليوم ، يلقى كل إنسان جزاء ما عمل ، فلا تظلم نفس شيئا ، فالمسيء لا يلقى من الجزاء إلا بقدر إساءته ، والمحسن لا يبخس من إحسانه شيء ، بل يوفّاه مضاعفا ..."

ومضات

وأخيرا يجيء شكهم في الوعد ، واستهزاؤهم بالوعيد : «وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟» ..ووعد اللّه لا يستقدم لاستعجال البشر

ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره. فكل شيء عند اللّه بمقدار. وكل أمر مرهون بوقته المرسوم. إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة اللّه الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه ، وكل حادث في إبانه ، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين.

أما الرد على هذا السؤال المنكر فيجيء في مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون ، لا متى يكون ..

«ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قالُوا : يا وَيْلَنا! مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا؟ هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..

يسأل المكذبون : «مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» .. فيكون الجواب مشهدا خاطفا سريعا .. صيحة تصعق كل حي ، وتنتهي بها الحياة والأحياء : «ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» ..

فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة ، لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حسابا. فإذا هم منتهون. كل على حاله التي هو عليها. لا يملك أن يوصي بمن بعده. ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة .. وأين هم؟ إنهم مثله في أماكنهم منتهون! ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور. ويمضون سراعا ، وهم في دهش

وذعر يتساءلون : «مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا؟». ثم تزول عنهم الدهشة قليلا ، فيدركون ويعرفون : «هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ»! ثم إذا الصيحة الأخيرة. صيحة واحدة. فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش.

يثوب : «فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» .. وتنتظم الصفوف ، ويتهيأ الاستعراض في مثل لمح البصر ورجع الصدى. وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف ، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع : «فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ..

وفي هذه السرعة الخاطفة التي تتم بها تلك المشاهد الثلاثة تناسق في الرد على أولئك الشاكين المرتابين في يوم الوعد المبين![٩٨]

وقال دروزة : " فالموعد آت لا ريب فيه. وستأتيهم الصيحة بغتة وهم لاهون في أشغالهم وخصوماتهم فيهلكون حيث هم فلا يرجعون إلى أهلهم ولا يجدون الفرصة لوصية يوصون بها.

الآيات استمرار للسياق السابق كما هو المتبادر حيث جاءت لتصوير الحالة في اليوم الموعود الذي حكت الآيات السابقة سؤال الكفار عنه وردّت عليهم مؤكدة منذرة ، وعبارتها واضحة لا تحتاج إلى أداء آخر. وقد احتوت صورة للبعث الأخروي وما يكون فيه من مصير المؤمنين والكفار جزاء لما كسبه كل منهم في الحياة الدنيا ، وما سوف يشعر

[٩٨] – في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٧١

الكفّار به من حقيقة ما وعدوا وصدق الرسل الذين أنذروا به وما سوف يخاطب اللّه به المجرمين من خطاب فيه تنديد وتبكيت.

وأسلوب الآيات قوي أخّاذ كسابقاها ، من شأنه إثارة الخوف والرعب في الكفار وبعث الطمأنينة والرضى في المؤمنين وهو مما استهدفته من دون ريب."[٩٩]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ - كان الرد الحاسم على استعجال الكفار قيام الساعة استهزاء أنها تأتي فجأة كلمح البصر أو هي أقرب ، وتحدث بنفخة واحدة هي نفخة إسرافيل في وقت يختصم الناس في أمور دنياهم ، فيموتون في مكانهم. وهذه نفخة الصّعق.

٢ - من آثار الموت المفاجئ بتلك النفخة أنهم لا يتمكنون من العودة إلى ديارهم إذا كانوا خارجين منها ، ولا يستطيعون الإيصاء إلى غيرهم بما لهم وما عليهم. وقيل : لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضا بالتوبة ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم.

٣ - ثم تأتي النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور من القبور ، فهما نفختان ، لا ثلاث ، بدليل هذه الآية : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ.

---

[٩٩] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٣٦)

عن أبي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ " قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، قَالَ : أَبَيْتُ ، قَالَ : أَرْبَعُونَ سَنَةً ، قَالَ : أَبَيْتُ ، قَالَ : أَرْبَعُونَ شَهْرًا ، قَالَ : " أَبَيْتُ وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ ، إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ "[100]

وعَنْ قَتَادَةَ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ : " بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ " قَالَ أَصْحَابُهُ : فَمَا سَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا زَادَنَا عَلَى ذَلِكَ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ مِنْ رَأْيِهِمْ أَنَّهَا أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُبْعَثُ فِي تِلْكَ الْأَرْبَعِينَ مَطَرٌ يُقَالُ لَهُ مَطَرُ الْحَيَاةِ ، حَتَّى تَطِيبُ الْأَرْضُ وَتَهْتَزُّ ، وَتَنْبُتُ أَجْسَادُ النَّاسِ نَبَاتَ الْبَقْلِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الثَّانِيَةَ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، سَأَلَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ : كَيْفَ يُبْعَثُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : " يُبْعَثُونَ جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ بَنِي ثَلَاثِينَ سَنَةً "[101]

وقَالَ الْبَلْخِيُّ بْنُ إِيَاسٍ : سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ الْآيَةَ ، قَالَ : الْأُولَى مِنَ الدُّنْيَا ، وَالْأَخِيرَةُ مِنَ الْآخِرَةِ "[102]

٤ - يتعجب أهل البعث ويذهلون ويفزعون مما يرون من شدائد الأهوال ، فيتساءلون عمن أخرجهم من قبورهم ، مفضلين عذاب القبر ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

---

[100] - صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٤٨١٤)

[101] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٧٨٥٣)

[102] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٧٨٥٢)

٥ – النفخة الثانية أيضا وهي نفخة البعث والنشور سريعة جدا ، فإذا حدثت تجمّع الناس جميعا وحضروا مسرعين إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [القمر ٥٤/ ٨].

٦ – الحساب حق وعدل ، والجزاء قائم على العدل المطلق ، فلا ينقص من ثواب العمل أي شيء مهما قل ، ولا يجزى الناس إلا على وفق ما عملوا من خير أو شر.

جزاء المحسنين

قال تعالى :

إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٥٥ ... شُغُلٍ ... هم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم

٥٥ ... فَاكِهُونَ ... متلذذون معجبون

٥٦ ... الأَرَائِكِ ... هي السرر تحت الحجال (الغرف المزخرفة)

٥٧ ... وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ... ما يتمنون وما يطلبون

٥٨ ... سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَّبٍّ رَّحِيمٍ ... يسلم الله سبحانه عليهم

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى حدوث البعث لا شك فيه ، وما يكون في يوم القيامة من الجزاء العادل ، بيّن هنا ما أعده للمحسنين ، ثم أعقبه في الآيات التالية بما أعده للمسيئين ، ترغيبا في العمل الصالح ، وترهيبا من سوء الأعمال.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن حال أهل الجنة فيقول : « إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ » " هذا ما يلقّاه المؤمنون فى هذا اليوم الذي يساق

فيه المشركون إلى موقف الحساب والجزاء .. وهذا الخبر هو تشويق للمؤمنين إلى هذا الجزاء الكريم الذي وعدوا به من ربّهم .. ثم هو فى الوقت نفسه عزل للكافرين عن هذا المقام ، ومضاعفة للحسرة فى قلوبهم .. وسمي أهل الجنة أصحابها ، تمكينا لهم منها ، وإطلاقا لأيديهم بالتصرف فى كل شيء فيها ، شأنهم فى هذا شأن المالك فيما ملك .. فضلا من اللّه وإحسانا.

وشغل أصحاب الجنة فى الجنة ، هو ما يلقّون من ألوان النعيم ، حيث يشغل هذا النعيم كل لحظة من حياتهم ، إذ يجيئهم ألوانا وصنوفا ، فإذا هم في أحوال متغايرة متشابهة معا .. تغايرة فى صورها وآثارها ، متشابهة فى إسعاد النفوس ونعيمها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً » (٢٥ : البقرة) وفاكهون : أي منعّمون بما يساق إليهم من ألوان النعيم ، وأصله من الفاكهة ، إذ كانت من طيبات المطاعم .. ومنه الفكاهة ، وهي التخير من طرف الكلام وملحه."

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ قَرَأَ: { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السجدة: ١٧] وَفِي رِوَايَةِ أَبِي مُعَاوِيَةَ " مِنْ قُرَّاتِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِ[١٠٣]

[١٠٣] - شعب الإيمان - (١ / ٥٨٩) (٣٧٧) وصحيح البخارى (٣٢٤٤) ومسلم (٧٣١٠)

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْد، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَصِفُ الْجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى ثُمَّ قَالَ فِيهَا: " مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } [السجدة: ١٦] " الْآيَتَيْنِ قَالَ أَبُو صَخْرٍ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلْقُرَظِيِّ فقَالَ: إِنَّهُمْ أَخْفَوْا لِلَّه عَزَّ وَجَلَّ عَمَلًا وَأَخْفَى لَهُمْ ثَوَابًا قَدِمُوا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَقَرَّ تِلْكَ الْأَعْيُنَ . "أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ [١٠٤]

وعن الشَّعْبِيِّ ، قالَ : سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ ، يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ مُوسَى سَأَلَ رَبَّهُ : أَيُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَدْنَى مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا يَدْخُلُ – يَعْنِي أَهْلَ الْجَنَّةِ – الْجَنَّةَ فَيُقَالُ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : كَيْفَ أَدْخَلُ الْجَنَّةَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ؟ فَيَقُولُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الْجَنَّةِ مِثْلُ مَا كَانَ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ أَيْ رَبِّ. فَيُقَالُ : لَكَ هَذَا وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، رَضِيتُ ، فَيُقَالُ لَهُ : إِنَّ لَكَ هَذَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهِ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، رَضِيتُ. فَيُقَالُ لَهُ : لَكَ مَعَ هَذَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. وَسَأَلَ رَبَّهُ : أَيُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : سَأُحَدِّثُكَ عَنْهُمْ ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَمِصْدَاقُ

---

[١٠٤] - شعب الإيمان - (٩ / ١٩٨)(٦٥١٤) ومسلم (٧٣١٣)

ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى : {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} الآيَةَ.[١٠٥]

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا ، وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ."[١٠٦]

وقَالَ أَبُو الْمُدِلَّةِ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ مَوْلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ ، يَقُولُ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبَنَا ، وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الآخِرَةِ ، وَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبَتْنَا الدُّنْيَا ، وَشَمَمْنَا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ ، فَقَالَ : لَوْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ بِأَكُفِّكُمْ ، وَلَوْ أَنَّكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ ، قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا ؟ قَالَ : لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ أَوِ الْيَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ ، فَلاَ يَبْؤُسُ ، وَيَخْلُدْ لاَ يَمُوتُ لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ ، ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ ، وَيَقُولُ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ."[١٠٧]

---

[١٠٥] - صحيح ابن حبان - (١٤ / ٩٩) (٦٢١٦) صحيح

[١٠٦] - صحيح ابن حبان - (١٦ / ٣٩٥) (٧٣٨٦) صحيح

[١٠٧] - صحيح ابن حبان - (١٦ / ٣٩٦) (٧٣٨٧) صحيح

وقوله تعالى : « هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ».. إشارة إلى أن أهل الجنة يجدون نعيما خاصا ، فى صور من الحياة التي كانوا يحيونها فى دنياهم ، ومن هذه الصور ، هذا الإلف الذي يجمع بين الزوج وزوجه ، وبين الوالدين وأولادهم .. فهذه رغيبة من رغائب الناس فى الحياة ، يسعد بها من وجدها فى زوجه وولده ، ويشتهيها من حرمها ، فلم يجد الزوج الموافقة ، ولا الولد الذي يسعد به .. فإذا كانت الآخرة ، كان من مطالب أهل الجنة أن يستعيدوا ما كانوا يجيدون من نعيم فى دنياهم ، وأن ينالوا ما كانوا يشتهونه ولا يجدون سبيلا إليه .. وهذا ــ كما قلنا غير مرة ــ هو التأويل لهذا النعيم الحسى ، ولهذه الصور الدنيوية من ذلك النعيم ، الذي يدخل على أصحاب الجنة مع نعيم الجنة ..وهذا مثل قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » (٢١ : الطور) فالمراد بالأزواج هنا ، الزوجات المؤمنات اللاتي أدخلن الجنة ، فيكون من تمام النعمة عليهن وعلى أزواجهن ، أن يجتمع بعضهم إلى بعض.

وليس التمتع وحدهم وإنما هم في أنس وسرور مع أزواجهم ، فقال تعالى : هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ ، عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ أي إنهم وحلائلهم في الجنة في ظلال الأشجار التي لا تصيبها الشمس ، لأنه لا شمس فيها ، وهم فيها متكئون على السرر المستورة بالخيام والحجال (المظلة الساترة). والأرائك كما بينا : الأسرّة التي في الحجال. وهذه المتعة في الظلال ، وعلى الأسرّة والفرش الوثيرة الناعمة هي حلم الإنسان وغاية ما يطمح إليه.

والمتعة ليست روحية وإنما هي مادية ، فقال تعالى : لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ ، وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ أي تقدم لهم الفواكه من جميع أنواعها ، ولهم غير ذلك كل ما يتمنون ويشتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ." أي لهم ما يشاءون ، وما يطلبون ، غير ما يقدّم إليهم من غير طلب .."

" وأطلقت الفاكهة من غير تحديد ، لتشمل كل فاكهة ، فيتخيرون منها ما يشاءون ، كما يقول سبحانه : « وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ » (٢ : الواقعة)"

وقوله : لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ ولم يقل «يأكلون» إشارة إلى اختيارهم وملكهم وقدرتهم.

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . يَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ . فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ . فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالُوا يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » البخارى .[١٠٨]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِذَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، قَالَ اللَّهُ : أَتَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا ، وَمَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : بَلَى ، رِضَايَ أَكْثَرُ.[١٠٩]

---

[١٠٨] – صحيح البخارى(٦٥٤٩) ومسلم (٧٣١٨)

[١٠٩] – صحيح ابن حبان – (١٦ / ٤٦٩) (٧٤٣٩) صحيح

وعَنْ صُهَيْبٍ ، قَالَ : تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ : {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس] قَالَ : إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُحِبُّ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا هُوَ ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ.[١١٠]

والنعمة الأسمى من كل ما يجدون : سلام اللّه عليهم ، فقال تعالى : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أي إن ما يتمنونه هو تحية اللّه لهم بالسلام أي الأمان من كل مكروه ، يقول لهم : سلام عليكم يا أهل الجنة ،" فيقول جل جلاله لأصحاب الجنة « سَلامٌ عليكم ».. وهذا هو غاية نعيم أصحاب الجنة وأطيب طعومها الطيبة عندهم .." كما قال تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلامٌ [الأحزاب ٣٣/ ٤٤] أو بوساطة الملائكة ، كما قال تعالى : وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ

---

[١١٠] - صحيح ابن حبان - (١٦ / ٤٧١) (٧٤٤١) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَذِهِ الأَخْبَارُ فِي الرُّؤْيَةِ يَدْفَعُهَا مَنْ لَيْسَ الْعِلْمُ صِنَاعَتَهُ ، وَغَيْرُ مُسْتَحِيلٍ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلاَ يُمَكِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْتَارِينَ مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رُؤْيَتِهِ ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ حَتَّى يَكُونَ فَرْقًا بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكِتَابُ يَنْطِقُ بِمِثْلِ السُّنَنِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سَوَاءً قَوْلَهُ جَلَّ وَعَلاَ : {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين] ، فَلَمَّا أَثْبَتَ الْحِجَابَ عَنْهُ لِلْكُفَّارِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ غَيْرَ الْكُفَّارِ لاَ يُحْجَبُونَ عَنْهُ ، فَأَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلاَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِيهَا لِلْفَنَاءِ فَمُسْتَحِيلٌ أَنْ يَرَى بِالْعَيْنِ الْفَانِيَةِ الشَّيْءَ الْبَاقِي ، فَإِذَا أَنْشَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ، وَبَعَثَهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْبَقَاءِ فِي إِحْدَى الدَّارَيْنِ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ حِينَئِذٍ أَنْ يَرَى بِالْعَيْنِ الَّتِي خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ الشَّيْءَ الْبَاقِي لاَ يُنْكِرُ هَذَا الأَمْرَ إِلاَّ مَنْ جَهِلَ صِنَاعَةَ الْعِلْمِ ، وَمَنَعَ بِالرَّأْيِ الْمَنْكُوسِ وَالْقِيَاسِ الْمَنْحُوسِ.صحيح ابن حبان - (١٦ / ٤٧٧)

بما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد ١٣/ ٢٣ - ٢٤] والمعنى أن اللّه يسلم عليهم بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك متمناهم.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حُمَيْدٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ ، يُحَدِّثُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ : " إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، أَقْبَلَ يَمْشِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ، فَيَقِفُ عَلَى أَوَّلِ أَهْلِ دَرَجَةٍ ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ : سَلَّامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فَيَقُولُ : سَلُوا ، فَيَقُولُونَ : مَا نَسْأَلُكَ وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ ، لَوْ أَنَّكَ قَسَمْتَ بَيْنَنَا أَرْزَاقَ الثَّقَلَيْنِ لَأَطْعَمْنَاهُمْ وَسَقَيْنَاهُمْ وَكَسَوْنَاهُمْ ، فَيَقُولُ : سَلُوا ، فَيَقُولُونَ : نَسْأَلُكَ رِضَاكَ ، فَيَقُولُ : رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَارَ كَرَامَتِي ، فَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَهْلِ كُلِّ دَرَجَةٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ ، قَالَ : وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ طَلَعَتْ لَأَطْفَأَ ضَوْءُ سِوَارَيْهَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، فَكَيْفَ بِالْمُسَوَّرَةِ " وفي رواية قَالَ : إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، أَقْبَلَ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ، قَالَ : فَيُسَلِّمُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، قَالَ الْقُرَظِيُّ : وَهَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ : سَلَّامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فَيَقُولُ : سَلُونِي ، فَيَقُولُونَ : مَاذَا نَسْأَلُكَ ، أَيْ رَبِّ ؟ قَالَ : بَلْ سَلُونِي ، قَالُوا : نَسْأَلُكَ أَيْ رَبِّ رِضَاكَ ، قَالَ : رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَارَ كَرَامَتِي ، قَالُوا : يَا رَبِّ وَمَا الَّذِي نَسْأَلُكَ فَوَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ وَارْتِفَاعِ مَكَانِكَ ، لَوْ قَسَمْتَ عَلَيْنَا رِزْقَ الثَّقَلَيْنِ لَأَطْعَمْنَاهُمْ ، وَلَأَسْقَيْنَاهُمْ ، وَلَأَلْبَسْنَاهُمْ وَلَأَخْدَمْنَاهُمْ ، لَا يُنْقِصُنَا ذَلِكَ شَيْئًا ، قَالَ : إِنَّ لَدَيَّ مَزِيدًا ،

قَالَ : فَيَفْعَلُ اللَّهُ ذَلِكَ بِهِمْ فِي دَرَجِهِمْ حَتَّى يَسْتَوِيَ فِي مَجْلِسِهِ ، قَالَ : ثُمَّ تَأْتِيهِمُ التُّحَفُ مِنَ اللَّهِ تَحْمِلُهَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ."

وفي رواية قَالَ : إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، أَقْبَلَ يَمْشِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَيَقِفُ ، قَالَ : ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَهُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : فَيَقُولُونَ : فَمَاذَا نَسْأَلُكَ يَا رَبِّ ، فَوَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ وَارْتِفَاعِ مَكَانِكَ ، لَوْ أَنَّكَ قَسَمْتَ عَلَيْنَا أَرْزَاقَ الثَّقَلَيْنِ ، الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَأَطْعَمْنَاهُمْ ، وَلَسَقَيْنَاهُمْ ، وَلَأَخْدَمْنَاهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ ذَلِكَ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَنَا ، قَالَ : بَلَى فَسَلُونِي ، قَالُوا : نَسْأَلُكَ رِضَاكَ ، قَالَ : رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَارَ كَرَامَتِي ، فَيَفْعَلُ هَذَا بِأَهْلِ كُلِّ دَرَجَةٍ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَجْلِسِهِ . وَسَائِرُ الْحَدِيثِ مِثْلُهُ فَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ ، يُنْبِئُ عَنْ أَنَّ " سَلَامٌ " بَيَانٌ عَنْ قَوْلِهِ : مَا يَدَّعُونَ وَأَنَّ الْقَوْلَ خَارِجٌ مِنَ السَّلَامِ . وَقَوْلُهُ : مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ يَعْنِي : رَحِيمٌ بِهِمْ إِذْ لَمْ يُعَاقِبْهُمْ بِمَا سَلَفَ لَهُمْ مِنْ جُرْمٍ فِي الدُّنْيَا "[111]

ومضات

إنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم ، ملتذون متفكهون. وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها ..وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم. لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشاءون وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدعون. ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم : «سَلامٌ» .. يتلقونه من ربهم الكريم : «قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» ..[112]

---

[111] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ(٢٦٨٤٤) صحيح مقطوع

[112] - في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٧٢

ما ترشد إليه الآيات

يفهم من الآيات ما يلي :

١ - إن أصحاب الجنة يتمتعون فيها متعة مادية وليست روحية فقط ، فهم في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي في النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم.

٢ - يتمتع أهل الجنة بنعيمها هم وأزواجهم ، تحت ستور تظللهم ، وعلى الأرائك (أي السّرر في الحجال ، كالناموسيات) متكئون.

٣ - لهم أنواع من الفاكهة لا تعد ولا تحصى ، ولهم كل ما يتمنون ويشتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

٤ - ولهم أكمل الأشياء وآخرها الذي لا شيء فوقه وهو السلام من اللّه الرب الرحيم ، إما بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك أقصى ما يتمنونه.

جزاء المجرمين

قال تعالى :

وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۖ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٥٩ ... وَامْتَازُوا ... تميزوا وانفردوا عن المؤمنين

٦٠ ... أَلَمْ أَعْهَدْ ... ألم أوصكم بترك طاعة الشيطان

٦٠ ... أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ... أن لا تطيعوا الشيطان

٦١ ... وَأَنِ اعْبُدُونِي ... أن تعبدوني وحدي

٦١ ... هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ... عبادة الرحمن ومعصية الشيطان

٦٢ ... جِبِلاًّ ... خلقا كثيرا

٦٤ ... اصْلَوْهَا ... ادخلوها أو قاسوا حرها

٦٦ ... لَطَمَسْنَا ... لصيرناها ممسوحة لا يرى لها شق

٦٧ ... لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ... لغيرنا خلقهم في مكان معصيتهم

٦٧ ... فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ... لا يتقدمون ولا يتأخرون

٦٨ ... وَمَن نُّعَمِّرْهُ ... الذي نطيل عمره

٦٨ ... نُنَكِّسْهُ فِي الخُلْقِ ... نرده إلى الضعف بعد القوة

المناسبة :

بعد بيان حال المحسنين في الآخرة ، أعقبه تعالى ببيان حال المجرمين في الدنيا والآخرة ، ففي الآخرة يميزون عن المؤمنين ، ويصلون نار جهنم خالدين فيها أبدا بسبب كفرهم واتباع وساوس الشيطان ، وفي الدنيا لم يعاجلهم بالعقوبة رحمة منه ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم ، أو يمسخ صورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير ، وأعطاهم الفرصة الكافية من العمر في الدنيا ليتمكنوا من النظر والاهتداء ، قبل أن يضعفوا ويعجزوا عن البحث والإدراك ، وذلك تحذير واضح لهم.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن حال الكفار يوم القيامة بتمييزهم عن المؤمنين في موقفهم ، فيقول : « وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » أي يقال للمجرمين الكافرين في الآخرة : تميزوا في موقفكم عن المؤمنين ،كما قال تعالى في آية أخرى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ [يونس ١٠/ ٢٨]

وقال سبحانه : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [الروم ٣٠/ ١٤] يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ [الروم ٣٠/ ٤٣] أي يصيرون صدعين فرقتين.

أو المراد : يمتاز المجرمون بعضهم عن بعض ، فاليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة ، والماديون والملحدون فرقة ، وهكذا.

وهذا زجر للكافرين ، وردع لهم أن يكونوا بمحضر من هذا المقام الكريم الذي يتزله أصحاب الجنة ، أو أن يروه بأعينهم ..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ كَذَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ : وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، فَلَمْ يَأْذَنْ فِي قِرَاءَةِ الْمَتْنِ ، فَكَتَبَ الْمَتْنَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَكَانَ فِيهِ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيهِ شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ " ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الصُّورُ ؟ قَالَ : " الْقَرْنُ " ، قَالَ : قُلْتُ : كَيْفَ هُوَ ؟ قَالَ : " عَظِيمٌ ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، إِنَّ عِظَمَ دَائِرَةٍ فِيهِ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ ثَلَاثَ نَفْخَاتٍ : الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَيَأْمُرُهُ فَيَمُدُّهَا وَيُطِيلُهَا ، وَلَا يَفْتُرُ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ، فَيُسَيِّرُ اللَّهُ الْجِبَالَ ، فَتَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، فَتَكُونُ سَرَابًا ، فَتَرُجُّ الْأَرْضَ بِأَهْلِهَا رَجًّا ، فَتَكُونُ كَالسَّفِينَةِ الْمُوقَرَةِ فِي الْبَحْرِ تَضْرِبُهَا الرِّيَاحُ

وَتَكْفِيهَا الرِّيَاحُ ، أَوْ كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلَّقِ بِالْعَرْشِ تُرَجِّحُهُ الْأَرْوَاحُ ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ، فَتَمْتَدُّ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَتَذْهَلُ الْمَرَاضِعُ ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ ، وَيَشِيبُ الْوِلْدَانُ ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً مِنَ الْفَزَعِ ، حَتَّى تَأْتِيَ الْأَقْطَارَ ، فَتَلْقَاهَا الْمَلَائِكَةُ تَضْرِبُ وُجُوهَهَا ، فَتَرْجِعُ فَتُوَلِّي النَّاسَ مُدْبِرِينَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَوْمَ التَّنَادِ ، بَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ تَصَدَّعَتِ الْأَرْضُ ، فَانْصَدَعَتْ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ ، وَأَخَذَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْكَرْبُ وَالْهَوْلُ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هِيَ كَالْمُهْلِ ، ثُمَّ انْشَقَّتْ فَانْتَثَرَتْ نُجُومُهَا ، فَانْخَسَفَتْ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا " ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " وَالْأَمْوَاتُ يَوْمَئِذٍ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ " ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَمَنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ قَالَ : فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، قَالَ : " أُولَئِكَ هُمُ الشُّهَدَاءُ ، فَإِنَّمَا يَصِلُ الْفَزَعُ إِلَى الْأَحْيَاءِ ، وَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَقَاهُمُ اللَّهُ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَمَّنَهُمْ ، وَهُوَ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى شِرَارِ خَلْقِهِ ، وَالَّذِي يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، إِلَى قَوْلِهِ : وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ، فَيَمْكُثُونَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ مَا شَاءَ اللَّهُ إِلَّا أَنَّهُ يُطَوَّلُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الصَّعْقِ ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَإِذَا خَمَدُوا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ فَيَقُولُ : قَدْ مَاتَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ

وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ : مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا تَمُوتُ ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، وَبَقِيتُ أَنَا ، فَيَقُولُ جَلَّ وَعَزَّ : فَيَمُوتُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيُنْطِقُ اللَّهُ الْعَرْشَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، يَمُوتُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيَقُولُ : اسْكُتْ ، إِنِّي كَتَبْتُ الْمَوْتَ عَلَى كُلِّ مَنْ تَحْتَ عَرْشِي ، فَيَمُوتَانِ ، ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، قَدْ مَاتَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ : فَمَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، وَبَقِيتُ أَنَا ، فَيَقُولُ : لِيَمُتْ حَمَلَةُ عَرْشِي ، فَيَمُوتُوا ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَرْشَ فَيَقْبِضُ الصُّورَ مِنْ إِسْرَافِيلَ ، ثُمَّ يَقُولُ : لِيَمُتْ إِسْرَافِيلُ ، فَيَمُوتُ ، ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، قَدْ مَاتَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، فَيَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ : فَمَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيتُ أَنَا ، فَيَقُولُ : أَنْتَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي ، خَلَقْتُكَ لِمَا رَأَيْتَ فَمُتْ ، فَيَمُوتُ ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ الصَّمَدَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فَكَانَ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا ، طَوَى السَّمَوَاتِ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ، ثُمَّ دَحَاهَا ، ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ، ثُمَّ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَقُولُ لِنَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، فَيَبْسُطُهَا بَسْطًا يَمُدُّهَا مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ ، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ زَجْرَةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ فِي مِثْلِ مَا كَانُوا مِنْهُ مِنَ

الْأُولَى ، مَنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا كَانَ فِي بَطْنِهَا ، وَمَنْ كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا كَانَ عَلَى ظَهْرِهَا ، ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَاءً مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ كَمَنِيِّ الرِّجَالِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، حَتَّى يَكُونَ فَوْقَهُمُ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْأَجْسَادَ أَنْ تَنْبُتَ كَنَبَاتِ الطَّرَاثِيثِ أَوْ كَنَبَاتِ الْبَقْلِ ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتْ أَجْسَادُهُمْ ، فَكَانَتْ كَمَا كَانَتْ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لِيَحْيَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، فَيَحْيَوْنَ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ : لِيَحْيَا جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ فَيَحْيَوْنَ ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ ، فَيَأْخُذُ الصُّورَ ، فَيَضَعُهُ عَلَى فِيهِ ، ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ بِالْأَرْوَاحِ فَيُؤْتَى بِهَا يَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُورًا ، وَالْأُخْرَى ظُلْمَةً ، فَيَقْبِضُهَا جَمِيعًا ، ثُمَّ يُلْقِيهَا فِي الصُّورِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ أَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ ، فَتَخْرُجُ الْأَرْوَاحُ كَأَنَّهَا النَّحْلُ قَدْ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ، لَيَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهِ ، فَتَدْخُلُ الْأَرْوَاحُ فِي الْخَيَاشِيمِ ، ثُمَّ تَمْشِي فِي الْأَجْسَادِ مَشْيَ السُّمِّ فِي اللَّدِيغِ ، ثُمَّ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ ، فَتَخْرُجُونَ مِنْهَا إِلَى رَبِّكُمْ تَنْسِلُونَ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي ، فَيَقُولُ الْكَافِرُونَ : هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ، حُفَاةً ، عُرَاةً ، غُرْلًا ، ثُمَّ يَقِفُونَ مَوْقِفًا وَاحِدًا مِقْدَارَ سَبْعِينَ عَامًا لَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ ، وَلَا يَقْضِي بَيْنَكُمْ ، فَتَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ، ثُمَّ تَدْمَعُونَ دَمًا تَعْرَقُونَ ، حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَنْ يُلْجِمَكُمْ أَوْ يَبْلُغَ الْأَذْقَانَ ، فَتُصْبِحُونَ فَتَقُولُونَ : مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا ، فَيَقْضِي بَيْنَنَا فَيَقُولُ : مَنْ أَحَقُّ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَكَلَّمَهُ قِبَلًا ، فَتَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَتَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَيَأْبَى وَيَقُولُ : مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ " ، فَيَأْتُونَ

الْأَنْبِيَاءَ نَبِيًّا نَبِيًّا ، كُلَّمَا جَاءُوا نَبِيًّا يَأْبَى عَلَيْهِمْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " حَتَّى يَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ ، فَآتِي الْفَحْصَ فَأَخِرُّ سَاجِدًا " ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْفَحْصُ ؟ قَالَ : " قُدَّامُ الْعَرْشِ ، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ مَلَكًا فَيَأْخُذُ بِعَضُدِي فَيَقُولُ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، فَأَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : مَا شَأْنُكَ ؟ " ، وَهُوَ أَعْلَمُ قَالَ : " فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ ، وَشَفَّعْتَنِي فِي خَلْقِكَ ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : قَدْ شَفَّعْتُكَ أَنَا آتِيهِمْ فَأَقْضِي بَيْنَهُمْ " ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ النَّاسِ ، فَبَيْنَا نَحْنُ وُقُوفٌ إِذْ سَمِعْنَا حَسًّا مِنَ السَّمَاءِ شَدِيدًا ، فَهَالَ فَنَزَلَ أَهْلُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمِثْلَيْ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنَ الْأَرْضِ أَشْرَقَتْ بِنُورِهِمْ ، وَأَخَذُوا مَصَافَّهُمْ ، قَالَ : قُلْنَا لَهُمْ : دُونَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا : لَا ، ثُمَّ تَنْزِلُ أَهْلُ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ بِمِثْلَيْ مَنْ نَزَلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَمِثْلَيْ مِنْ فِيهَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنَ الْأَرْضِ أَشْرَقَتْ بِنُورِهِمْ وَأَخَذُوا مَصَافَّهُمْ ، ثُمَّ ذَكَرُوا نُزُولَ أَهْلِ كُلِّ سَمَاءٍ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّضْعِيفِ ، ثُمَّ يَنْزِلُ الْجَبَّارُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ، وَهُوَ الْيَوْمُ ، أَرْبَعَةُ أَقْدَامِهِمْ عَلَى نُجُومِ الْأَرْضِ السُّفْلَى ، وَالْأَرْضُ إِلَى حُجَزِهِمْ ، وَالْعَرْشُ عَلَى مَنَاكِبِهِمْ ، لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ ، يَقُولُونَ سُبْحَانَ ذِي الْعَرْشِ وَالْجَبَرُوتِ ، سُبْحَانَ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ ، سُبْحَانَ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، سُبْحَانَ الَّذِي يُمِيتُ الْخَلَائِقَ وَلَا يَمُوتُ ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، سُبْحَانَ رَبِّنَا الْأَعْلَى رَبِّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ، الَّذِي يُمِيتُ الْخَلْقَ وَلَا يَمُوتُ . فَيَضَعُ اللَّهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ ، ثُمَّ يَهْتِفُ تَبَارَكَ

وَتَعَالَى قَائلًا : يَا مَعْشَرَ الْجنِّ وَالْإِنْسِ ، إِنِّي قَدْ أَنْصَتُّ لَكُمْ مُذْ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا ، أَسْمَعُ قَوْلَكُمْ ، وَأُبْصِرُ أَعْمَالَكُمْ ، فَاسْمَعُوا إِلَيَّ ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ جَهَنَّمَ ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ سَاطِعٌ مُظْلِمٌ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، إِلَى قَوْلِهِ : وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ، فَيُمَيِّزُ اللَّهُ النَّاسَ ، وَتَجْثُوا الْأُمَمُ ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ، فَيَقْضِي اللَّهُ بَيْنَ خَلْقِهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ ، فَيَقْضِي بَيْنَ الْوَحْشِ وَالْبَهَائِمِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُقِيدُ لِلْجَمَّاءِ مِنْ ذَاتِ الْقَرْنِ ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَبْقَ تَبِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدَةٍ لِلْأُخْرَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كُونِي تُرَابًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ، فَيَقْضِي اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْعِبَادِ ، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَا يَقْضِي فِيهِ الدِّمَاءُ ، فَيَأْتِي كُلُّ قَتِيلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَأْمُرُ اللَّهُ كُلَّ قَتِيلٍ فَيُحْمَلُ رَأْسَهُ ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ فَيَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ : لِمَ قَتَلْتَهُ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : صَدَقْتَ ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ وَجْهَهُ مِثْلَ نُورِ الشَّمْسِ ، ثُمَّ تُشَيِّعُهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْجَنَّةِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ كُلَّ قَتِيلٍ قُتِلَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، فَيَأْتِي يَحْمِلُ رَأْسَهُ ، وَيَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا ، وَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ فَيَقُولُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : لِمَ قَتَلْتَهُ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ : تَعِسْتَ ، ثُمَّ لَا يَبْقَى بَشَرَةٌ قَتَلَهَا إِلَّا قُتِلَ بِهَا ، وَلَا مَظْلَمَةٌ ظَلَمَهَا إِلَّا أُخِذَ بِهَا ، ثُمَّ يَصِيرُ فِيمَا بَقِيَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى

إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ ، وَإِنْ شَاءَ رَحِمَهُ ، ثُمَّ يَقْضِي بَيْنَ مَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْقِهِ ، حَتَّى لَا يُبْقِي مَظْلَمَةً عِنْدَ أَحَدٍ إِلَّا أَخَذَهَا الْمَظْلُومُ مِنَ الظَّالِمِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ كُلِّفَ شَائِبُ اللَّبَنِ بِالْمَاءِ أَنْ يُقَلِّبَهُ حَتَّى يُخَلِّصَ اللَّبَنَ مِنَ الْمَاءِ ، فَإِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ نَادَى مُنَادٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فَيَقُولُ : أَلَا لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِآلِهَتِهِمْ ، وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ عَبَدَ شَيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا مُثِّلَتْ لَهُ آلِهَتُهُ ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى صُورَةِ عُزَيْرٍ ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى صُورَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَيَتَّبِعُ الْيَهُودُ عُزَيْرًا ، وَيَتَّبِعُ النَّصَارَى عِيسَى ، ثُمَّ تَقُودُهُمْ آلِهَتُهُمْ إِلَى النَّارِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ ، وَفِيهِمُ الْمُنَافِقُونَ ، جَاءَهُمُ اللَّهُ فِيمَا شَاءَ مِنْ هَيْئَةٍ ، فَيَقُولُونَ : وَاللَّهِ مَا لَنَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا كُنَّا نَعْبُدُ غَيْرَهُ ، فَيُكْشَفُ لَهُمْ عَنْ سَاقٍ وَيَتَجَلَّى لَهُمْ ، وَيُظْهِرُ لَهُمْ مِنْ عَظَمَتِهِ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَيَخِرُّ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلَى قَفَاهُ ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى أَصْلَابَهُمْ كَصَيَاصِيِّ الْبَقَرِ ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُمْ فَيَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الصِّرَاطَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ كَعَدَدِ أَوْ كَعَقْدِ الشَّعْرِ أَوْ كَحَدِّ السَّيْفِ ، عَلَيْهِ كَلَالِيبُ ، وَخَطَاطِيفُ ، وَحَسَكٌ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ ، دُونَهُ جِسْرٌ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ ، فَيَمُرُّونَ كَطُرُوفِ الْعَيْنِ أَوْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ أَوْ كَمَرِّ الرِّيحِ أَوْ كَجِيَادِ الْخَيْلِ أَوْ كَجِيَادِ الرِّيَاحَاتِ أَوْ كَجِيَادِ الرِّجَالِ ، فَنَاجٍ سَالِمٌ ، وَمَخْدُوشٌ ، وَمَكْدُوشٌ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَهَنَّمَ ، فَإِذَا أَفْضَى أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ قَالُوا : مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا ، فَنَدْخُلَ

الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُونَ : مَنْ أَحَقُّ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَكَلَّمَهُ قِبَلًا ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَيَذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُولُ : مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِنُوحٍ ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ رُسُلِ اللَّهِ ، فَيُؤْتَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُولُ : مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَهُ خَلِيلًا ، فَيُؤْتَى ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَرَّبَهُ نَجِيًّا ، وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ التَّوْرَاةَ ، فَيُؤْتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُولُ : مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِرُوحِ اللَّهِ وَكَلِمَتِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَيُؤْتَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ : مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيَأْتُونِي وَلِي عِنْدَ رَبِّي ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ وَعَدَنِيهِنَّ ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي الْجَنَّةَ ، فَآخُذُ بِحَلْقَةِ الْبَابِ ، ثُمَّ أَسْتَفْتِحُ ، فَيُفْتَحُ لِي فَأُحَيَّا وَيُرَحَّبُ بِي ، فَإِذَا أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَرَرْتُ سَاجِدًا ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ شَيْئًا مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي ، قَالَ اللَّهُ وَهُوَ أَعْلَمُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ ، فَشَفِّعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَدْ شَفَّعْنَاكَ ، وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ " ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، مَا أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِنِكُمْ

مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ وَبِمَسَاكِنِهِمْ ، فَيَدْخُلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِيءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَثِنْتَيْنِ آدَمِيَّتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَهُمْ فَضْلٌ لِعِبَادَتِهِمَا اللَّهَ فِي الدُّنْيَا ، فَيَدْخُلُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ فِي غُرْفَةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِاللُّؤْلُؤِ ، وَعَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، ثُمَّ يَضَعُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى يَدِهِ مِنْ صَدْرِهَا مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَجِلْدِهَا وَلَحْمِهَا ، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَى مُخِّ سَاقِهَا ، كَمَا يَنْظُرُ أَحَدُكُمْ إِلَى السِّلْكِ فِي قَصَبَةِ الْيَاقُوتِ ، كَبِدُهَا لَهُ مِرْآةٌ وَكَبِدُهُ لَهَا مِرْآةٌ ، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهَا لَا يَمَلُّهَا وَلَا تَمَلُّهُ ، مَا يَأْتِيهَا مَرَّةً إِلَّا وَجَدَهَا عَذْرَاءَ ، مَا يَفْتُرُ ذَكَرُهُ ، وَلَا يَشْتَكِي قُبُلُهَا ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نُودِيَ : إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَا تَمَلُّ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ ، إِلَّا أَنَّ لَكَ أَزْوَاجًا غَيْرَهَا ، فَيَخْرُجُ فَيَأْتِيهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، كُلَّمَا جَاءَ وَاحِدَةً قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَإِذَا رُفِعَ أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ رُفِعَ فِيهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ رَبِّكَ قَدْ أَوْبَقَتْهُمْ أَعْمَالُهُمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى قَدَمَيْهِ لَا تُجَاوِزُ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حِقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ فِي جَسَدِهِ كُلِّهِ إِلَّا وَجْهَهُ يُحَرِّمُ اللَّهُ تَعَالَى صُورَتَهُمْ عَلَيْهَا " . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، مَنْ وَقَعَ فِي النَّارِ مِنْ أُمَّتِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ عَرَفْتُمْ ، فَخَرَجَ أُولَئِكَ ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الشَّفَاعَةِ ، فَلَا يَبْقَى نَبِيٌّ ، وَلَا شَهِيدٌ ، إِلَّا شَفِعَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ وَجَدْتُمْ

فِي قَلْبِه زِنَةَ الدِّينَار ، فَيَخْرُجُ أُولَئِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُم أَحَدٌ ، ثُمَّ يَشْفَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : أَخْرِجُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِه ثُلُثَيِ الدِّينَارِ إِيمَانًا ، وَنِصْفَ وَرُبُعَ دِينَارٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : قِيرَاطٌ ، وَيَقُولُ : حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَيَخْرُجُ أُولَئِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ لَهُ شَفَاعَةٌ إِلَّا شَفَعَ ، حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ لَيَتَطَاوَلُ لِمَا يَرَى مِنْ رَحْمَةِ اللَّه رَجَاءَ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ : بَقِيتُ أَنَا ، وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا مَا لَا يُحْصِيه كَثْرَةً ، كَأَنَّهُمُ الْجَمْرُ يُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ عَلَى نَهَرٍ يُقَالُ لَهُ : الْحَيَوَانُ ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ، مَا يَلِي الشَّمْسَ مِنْهَا أُخَيْضِرُ ، وَمَا يَلِي الظِّلَّ مِنْهَا أُصَيْفِرُ ، فَيَنْبُتُونَ كَنَبَاتِ الطَّرَاثِيثِ ، حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَ الدُّرِّ مَكْتُوبَةً فِي رِقَابِهِمُ الْجَهَنَّمِيُّونَ عُتَقَاءُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّة بِذَلِكَ الْكِتَاب ، مَا عَمِلُوا خَيْرًا قَطُّ ، فَيَمْكُثُونَ فِي الْجَنَّة مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَذَلِكَ الْكِتَابُ فِي رِقَابِهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ، امْحُ عَنَّا هَذَا الْكِتَابَ ، فَيَمْحَاهُ عَنْهُمْ "[١١٣]

ثم أبان اللّه تعالى سبب تمييزهم عن غيرهم ، موبخا ومقرعا لهم على كفرهم ، فقال : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ .. إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ».

" العهد هنا ، هو ما كان من اللّه سبحانه وتعالى من تحذير من الشيطان وأعوانه ، كما يقول سبحانه على يد الرسل « يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ » (٢٧ : الأعراف) وكما يقول

[١١٣] - الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٩٣) ضعيف

جلّ شأنه : « إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ » (٦ : فاطر) وعبادة الشيطان ، هى اتّباعه فيما يدعو إليه ، وهو لا يدعو إلا إلى ضلال ، وشرك ، وكفر ..والاستفهام فى الآية للتقرير .. الذي يثير مشاعر الندم والحسرة .."

وبعد النهي عن عبادة غير اللّه أمر تعالى بعبادته ، فقال : « وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ » هو معطوف على قوله تعالى : « أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ».. أي « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي » ؟ .. فالعهد الذي أخذه اللّه على أبناء آدم جميعا ، هو أن يتجنبوا عبادة الشيطان ، وأن يحذروا الاستجابة له فيما يدعوهم إليه ، وأن يعبدوا اللّه وحده .. فهذا هو الصراط المستقيم .. فمن لم يعبد اللّه ، فقد ضل وهلك ..

ثم أخبر اللّه تعالى عن مساعي الشيطان في إضلال السابقين ، فقال : : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ » الجبلّ ، والجبلة : الخلق والآية تلفت العقول إلى هذه الآثار السيئة التي تركها الشيطان فيمن عصوا اللّه ، ونقضوا العهد ، واتبعوا خطوات الشيطان .. لقد ألقى بهم الشيطان فى بلاء عظيم ، وأوردهم موارد الهلاك .. فإذا لم ير بعض الغافلين أن يستجيبوا لما دعاهم اللّه إليه من اجتناب الشيطان ، والحذر منه ــ أفلم يكن لهم فيما رأوا من آثاره فى أتباعه وأوليائه ، ما يدعوهم إلى اجتنابه ، ومحاذرته ؟

أي لقد أغوى الشيطان خلقا كثيرا ، وزين لهم فعل السيئات ، وصدهم عن طاعة اللّه وتوحيده ، أفلم تعقلوا عداوة الشيطان لكم ، وتبتعدوا عن مثل ضلالات السابقين ، حتى لا تعذبوا مثلهم.

وفي قوله تعالى : « أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ » هو عود باللائمة والتوبيخ لهؤلاء الذين لا تزال أيديهم ممسكة بيد الشيطان ، وهم يمشون على أشلاء صرعاه منهم!

ثم بيّن اللّه تعالى مآل أهل الضلال قائلا لهم يوم القيامة تقريعا وتوبيخا : « هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ »..لقد نقض المشركون عهد اللّه ، وخرجوا عن أمره .. ولكن اللّه سبحانه لم ينقض عهده معهم ، وهو أنهم إذا نقضوا عهده ، وخرجوا عن أمره ، كانت النار موعدهم .. كما يقول سبحانه : « النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (٧٢ : الحج).

قوله تعالى : « اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أي اصطلوا بها ، وذوقوا عذابها ، بسبب كفركم وضلالكم ..وفى هذا الأمر الذي يلقى إليهم وهم يتقلبون على جمر جهنم مضاعفة للعذاب ومزيد منه ، إن كان وراءه مزيد!.

وفي هذا الكلام إشارة إلى شدة ندامتهم وحسرتهم من وجوه ثلاثة [١١٤] :

١ - قوله تعالى : اصْلَوْهَا وهو أمر تنكيل وإهانة ، كقوله تعالى لفرعون : ذُقْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان ٤٤/ ٤٩].

[١١٤]- تفسير الرازي : ٢٦/ ١٠١

٢ – قوله تعالى : الْيَوْمَ الذي يدل على أن العذاب حاضر ، وأن لذاتهم قد مضت ، وبقي العذاب اليوم.

٣ – قوله تعالى : بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الذي ينبئ عن الكفر بنعمة عظيمة ، وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام ، كما قال بعضهم :

أليس بكاف لذي نعمة حياء المسيء من المحسن

ثم أبان اللّه تعالى مدى مواجهتهم بالجرم الذي ارتكبوه دون أن يستطيعوا إنكاره ، فقال : « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ » أي فى هذا اليوم يختم اللّه على أفواه أهل الضلال ، فلا ينطقون .. وفى هذا زجر لهم ، وكبت للكلمات التي كانت ستنطلق من أفواههم ، ليعتذروا بها إلى اللّه ، وليتبرءوا بها من أنفسهم ، وما جنته أيديهم ، أو يحاولوا بها إلقاء التهمة على غيرهم .. وفى كل هذا مجال للتنفس عنهم .. وكلّا ، فإنه لا متنفس لهم ، ولو بالكلمة!!

ومما يضاعف فى إيلامهم وحسرتهم أن يقوم الشهود عليهم بإثبات جريمتهم ـــ من أنفسهم ، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم .. إنهم شهود أربعة ، تتم بهم الشهادة على مرتكبى الكبائر ..

ولا نسأل كيف تتكلم هذه الجوارح .. إنها تنطق للخالق الذي خلقها ..وفى هذا يقول اللّه تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (١٩ ـــ ٢١ : فصلت).

فليست الأيدى والأرجل وحدها هى التي تنطق وتشهد على أصحابها ، بل إن كل جارحة فيهم تشهد عليهم بما كان منها ، حتى ألسنتهم تلك التي ختم اللّه عليها .. إنها ستنطق ولكن بعد أن تشهد الجوارح كلها ، فلا يكون لهم حجة تنطق بها الألسنة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ » (٢٤ : النور).

وجعل الكلام للأيدي والشهادة للأرجل ،لأن أكثر الأفعال تتم بمباشرة الأيدي ، كما قال تعالى : وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ [يس ٣٦/ ٣٥] وقال سبحانه : وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة ٢/ ١٩٥] أي ولا تلقوا بأنفسكم ، والشاهد على العمل ينبغي أن يكون غيره ، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود ، لتعذر إضافة الأفعال إليها.

روى مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ ، فَقَالَ : هَلْ تَدْرُونَ مِمَّا أَضْحَكُ ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قَالَ : يَقُولُ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي ، فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لأَرْكَانِه : انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِه ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ ، وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ."[١١٥].

---

[١١٥] - صحيح ابن حبان - (١٦ / ٣٥٨) (٧٣٥٨) وصحيح مسلم (٧٦٢٩)

ثم أوضح اللّه تعالى بعض مظاهر قدرته عليهم من إذهاب البصر والمسخ وسلب الحركة ، فقال : « وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » أي لو شاء اللّه لطمس على أعين هؤلاء المشركين ، وهم فى هذه الدنيا ، وأنزل بهم هذا العقاب الرادع ، فأسرعوا إلى الإيمان ، واستبقوا إليه ، تحت ضغط هذا النذير ، ولكن اللّه سبحانه لم يشأ هذا بهم ، ولم يلجئهم إلى الإيمان اضطرارا ..فقوله تعالى : « فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ » سبب للطمس على أعينهم ، والفاء للسببية ..وقوله تعالى : « فَأَنَّى يُبْصِرُونَ » أي فكيف يبصرون ، إذا طمس اللّه على عيونهم ؟

إن هذه الإبصار نعمة جليلة من نعم اللّه ، وقد أبقاها اللّه لهم فلم يطمس عليها ..أفلا يرعون هذه النعمة المهددة بالطمس ؟ ثم ألا ينظرون بها ، ويهتدون إلى الإيمان ويستبقون بها إلى صراط اللّه المستقيم ؟

«وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ»

أي لو شئنا لبدّلنا خلقهم ، وحولنا صورهم إلى صور أخرى أقبح منها كالقردة والخنازير ، وهم في أمكنتهم ومواضعهم التي هم فيها يرتكبون السيئات ، فلا يتمكنون من الذهاب والمضي أمامهم ، ولا الرجوع وراءهم ، بل يلزمون حالا واحدا ، لا يتقدمون ولا يتأخر

" أي لو شاء اللّه كذلك ، لمسخهم على مكانتهم التي هم فيها من الضلال والعناد ، هو لم يدخل على مشاعرهم شيئا من الإيمان ، ولأمسك بهم على الكفر فما استطاعوا « مضيّا » أي اتجاها إلى الإيمان ، ولا رجوعا عما هم عليه من طرق الضلال ..ولكنه سبحانه وتعالى ،

لم يشأ ذلك فيهم ، وترك لهم مجال النظر ، والاختيار ، والتحرك من الكفر إلى الإيمان ، إن شاءوا .. فمشيئتهم مطلقة عاملة ، غير معطلة ، وبهذا لا تكون لهم على اللّه حجة.

وهذا يعنى أن الخطاب هنا ــ وهو لجماعة المشركين ــ يشير إلى أن فيهم من سيتحولون من حالهم تلك ، ويخرجون من هذا الظلام ، ويلحقون بالمؤمنين ، ويدخلون فى دين اللّه .. فالفرصة لا تزال فى أيديهم ، لن تفلت منهم بعد ..وإن السعيد منهم من سبق ، وأخذ مكانه على طريق الإيمان ، قبل أن تفلت الفرصة من يده"

ثم حذرهم مَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلا يَعْقِلُونَ؟ أي ومن نطل عمره ، نرده إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط ، أفلا يدركون ويتفكرون أنهم كلما تقدمت بهم السن ، ضعفوا وعجزوا عن العمل؟ وأننا أعطيناهم الفرصة الكافية من العمر للبحث والنظر والتفكير الصحيح ، فإذا طالت أعمارهم بعدئذ أكثر من ذلك ، فلن يفيدهم طول العمر شيئا. وفي هذا قطع لأعذارهم بأنه لم تتوافر لديهم الفرصة المواتية للبحث والنظر.

والآية مثل : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [الروم ٣٠/ ٥٤].

" « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ .. أَفَلا يَعْقِلُونَ » مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيتين السابقتين ، حملتا مع هذا التهديد الذي حملته إلى

المشركين ، دعوة إلى المبادرة إلى الإيمان باللّه ، واستباق الزمن قبل أن يفوت الأوان ..

وهنا فى هذه الآية ، دعوة أخرى إلى المبادرة واستباق الزمن .. حيث أنه كلما طال الزمن بهم لم يزدهم طول الزمن إلا نقصا فى الخلق ، وإلا ضعفا فى التفكير ، حيث يأخذ الإنسان عند مرحلة من مراحل العمر فى العودة إلى الوراء ، وفى الانحدار شيئا فشيئا ، حتى يعود كما بدأ ، طفلا فى مشاعره ، وخيالاته ، وصور تفكيره ..

فالزمن بالنسبة لهؤلاء المشركين ، ليس فى صالحهم ، وأنهم وقد بلغوا مرحلة الرجولة الكاملة ، لا ينتظرون إلا أن ينقصوا لا أن يزدادوا ، وعيا وإدراكا ، وأنهم إذا لم تهدهم عقولهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الذي بين أيديهم فلن يهتدوا بعد هذا أبدا ، بل سيزدادون ضلالا إلى ضلال ، وعمى إلى عمى ..

وفى قوله تعالى : « أَفَلا يَعْقِلُونَ » حثّ لهم على استعمال عقولهم تلك ، التي هى معهم الآن ، ثم إذا هى ـــ بعد أن يمتد العمر بهم ـــ وقد تخلت عنهم!

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً » (٧٠ : النحل)."

ومضات

إنهم يتلقون التحقير والترذيل : «وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ» .. انعزلوا هكذا بعيدا عن المؤمنين! «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ – يا بَنِي آدَمَ – أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ؟» ..

ونداؤهم هنا «يا بَنِي آدَمَ» .. فيه من التبكيت ما فيه. وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه ، وهو لهم عدو مبين.
«وَأَنِ اعْبُدُونِي» .. «هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» ..واصل إليّ مؤد إلى رضاي. فلم تحذروا عدوكم الذي أضل منكم أجيالا كثيرة .. «أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ؟».
وفي نهاية هذا الموقف العصيب المهين يعلن الجزاء الأليم ، في تهكم وتأنيب :
«هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»!
ولا يقف المشهد عند هذا الموقف المؤذي ويطويه. بل يستطرد العرض فإذا مشهد جديد عجيب : «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» ..
وهكذا يخذل بعضهم بعضا ، وتشهد عليهم جوارحهم ، وتتفكك شخصيتهم مزقا وآحادا يكذب بعضها بعضا. وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلما.
إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب! كذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون. ولو شاء اللّه لفعل بهم غير ذلك ، ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد ..
ويعرض هنا نوعين من هذا البلاء لو شاء اللّه لأخذ بهما من يشاء : «وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ ، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ، وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ» ..

وهما مشهدان فيهما من البلاء قدر ما فيهما من السخرية والاستهزاء. السخرية بالمكذبين والاستهزاء بالمستهزئين ، الذين كانوا يقولون : «مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟» ..

فهم في المشهد الأول عميان مطموسون. ثم هم مع هذا العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون! ويتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين! «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ» وهم في المشهد الثاني قد جمدوا فجأة في مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضي ولا تعود بعد أن كانوا منذ لحظة عميانا يستبقون ويضطربون! وإنهم ليبدون في المشهدين كالدمى واللعب ، في حال تثير السخرية والهزء. وقد كانوا من قبل يستخفون بالوعيد ويستهزئون! ذلك كله حين يحين الموعد الذي يستعجلون .. فأما لو تركوا في الأرض ، وعمروا طويلا وأمهلهم الوعد المرسوم بعض حين فإنهم صائرون إلى شر يحمدون معه التعجيل .. إنهم صائرون إلى شيخوخة وهرم ، ثم إلى خرف ونكسة في الشعور والتفكير :«وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ. أَفَلا يَعْقِلُونَ» ..

والشيخوخة نكسة إلى الطفولة. بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة! وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم ، وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلا. ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة. والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة ، وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز. وكلما استحمق وقد قوست ظهره السنون! فهذه

العاقبة كتلك تنتظر المكذبين ، الذين لا يكرمهم اللّه بالإيمان الراشد الكريم ..[116]

وقال دروزة " عند قوله تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ } عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ ، فَقَالَ : هَلْ تَدْرُونَ مِمَّا أَضْحَكُ ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قَالَ : يَقُولُ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي ، فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لأَرْكَانِه : انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِه ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ ، وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ."[117]

وفي الحديث تفسير توضيحي للصورة التي احتوها الآية قد يزول به ما يمكن أن يقوم من وهم التناقض بينها وبين آيات أخرى حكيت فيها أقوال يقولها الكفار يوم القيامة من قبيل الاعتذار مثل آية سورة المؤمنون هذه : قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (١٠٦) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (١٠٧). وآية سورة السجدة هذه : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢).

---

[116] - في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٧٢

[117] - صحيح ابن حبان - (١٦ / ٣٥٨) (٧٣٥٨) وصحيح مسلم (٧٦٢٩)

وليس في الحديث بعد ما يخلّ بما قلناه من استهداف الآيات لإثارة الخوف والرعب في الكفّار كما هو واضح."

وقال أيضاً : والآيات على ما هو ظاهر متصلة بالسياق السابق اتصال تعقيب وتنديد وتنبيه ، ولعلها انطوت على تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين أيضا. حيث احتوت تقريرات ربانية بأن اللّه لو شاء لطمس على أعين الكفار فلا يستطيعون أن يبصروا الصراط المستقيم ويسيروا فيه ، أو لو شاء لمسخهم فبدّل من صورهم وأفقدهم قابلية الحركة والنشاط المعتادة وأن في ما يرونه من آثار قدرة اللّه وناموسه في تبديل خلق الإنسان وقواه وإرجاعه حين شيخوخته إلى الضعف وسوء الحال لدليلا على ذلك لو عقلوا.

والمتبادر لنا أنه أريد بما قررته الآيات تقرير كون اللّه لم يفعل بهم ذلك إلا ليكون لهم من مواهبهم وحواسهم المعتادة التي زودهم بها وسيلة للإدراك والتمييز والحركة والنشاط حتى لا تضيع الفرصة عليهم ويستحقوا ما يستحقونه من المصير عدلا وحقا إذ عطلوا ما زودهم اللّه به وأضاعوا الفرصة و لم يسيروا في طريق الهدى والحق.

وينطوي في هذا إعذار وإنذار ربانيان للكفار ، وحكمة ربانية سامية مستمرة الإلهام والتلقين وهي الدعوة إلى الانتفاع بالمواهب التي أودعها اللّه في الناس بالاستدلال على سبيل الحق والهدى والخير والسير فيها وعدم تعطيلها." [١١٨]

---

[١١٨] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٣٧)

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ - إن سياسة العزل للمجرمين ستطبق في الآخرة بنحو تام وشامل ، فيميز المجرمون عن المؤمنين ، تحقيرا لهم ، وإعدادا لسوقهم إلى نار جهنم ، وذلك حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ، فيقال لهم : اخرجوا من جملتهم.

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّه ، قَالَ : ذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ سَبْعَة رَهْط شَهِدُوا بَدْرًا قَالَ وَهْبٌ : وَقَدْ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّه بْنُ عَبَّاسٍ كُلُّهُمْ رَفَعُوا الْحَدِيثَ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ يَدْعُو نُوحًا وَقَوْمَهُ يَوْمَ الْقيَامَة أَوَّلَ النَّاسِ ، فَيَقُولُ : مَاذَا أَجَبْتُمْ نُوحًا ؟ فَيَقُولُونَ : مَا دَعَانَا وَمَا بَلَّغَنَا وَلَا نَصَحَنَا وَلَا أَمَرَنَا وَلَا نَهَانَا ، فَيَقُولُ نُوحٌ : دَعَوْتُهُمْ يَا رَبِّ دُعَاءً فَاشيًا فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخرِينَ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّة حَتَّى انْتَهَى إِلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ أَحْمَدَ فَانْتَسَخَهُ وَقَرَأَهُ وَآمَنَ به وَصَدَّقَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ للْمَلَائكَة : ادْعُوا أَحْمَدَ وَأُمَّتَهُ ، فَيَأْتِي رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأُمَّتُهُ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْديهِمْ فَيَقُولُ نُوحٌ لِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِه : هَلْ تَعْلَمُونَ أَنِّي بَلَّغْتُ قَوْمِي الرِّسَالَةَ وَاجْتَهَدْتُ لَهُمْ بِالنَّصِيحَةِ ، وَجَهِدْتُ أَنْ أَسْتَنْقذَهُمْ مِنَ النَّارِ سِرًّا وَجِهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ؟ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَأُمَّتُهُ : " فَإِنَّا نَشْهَدُ بِمَا نَشَدْتَنَا بِه أَنَّكَ فِي جَمِيعِ مَا قُلْتَ مِنَ الصَّادقِينَ " . فَيَقُولُ قَوْمُ نُوحٍ : وَأَيْنَ عَلِمْتَ هَذَا يَا أَحْمَدُ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ وَنَحْنُ أَوَّلُ الْأُمَمِ وَأَنْتَ وَأُمَّتُكَ آخِرُ الْأُمَمِ ؟ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّه ﷺ : " بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَأْتِيَهُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَرَأَ السُّورَةَ حَتَّى خَتَمَهَا ، فَإِذَا خَتَمَهَا قَالَتْ أُمَّتُهُ نَشْهَدُ أَنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ : " امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ يَمْتَازُ فِي النَّارِ "[119]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللَّهُ جَهَنَّمَ فَيَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ سَاطِعٌ مُظْلِمٌ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ . . الْآيَةَ ، إِلَى قَوْلِهِ : هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . فَيَتَمَيَّزُ النَّاسُ وَيَجْثُونَ ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ : وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ الْآيَةَ فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذَنْ : وَتَمَيَّزُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ ، فَإِنَّكُمْ وَارِدُونَ غَيْرَ مَوْرِدِهِمْ ، دَاخِلُونَ غَيْرَ مَدْخَلِهِمْ "[120]

٢ – يعاتب الكفار سلفا في الدنيا قبل أن يعاقبوا في الآخرة ، فيقال لهم من جهة الحق : ألم أوصكم وأبلّغكم على ألسنة الرسل ألا تطيعوا الشيطان في معصيتي ، وأن توحدوني وتعبدوني ، فإن عبادتي دين قويم.

٣ – يؤكد تعالى تحذيره من الشيطان قائلا : لقد أغوى الشيطان بوساوسه خلقا كثيرا ، أفلا تعتبرون بالآخرين ، وألا تعقلون عداوته ، وتعلموا أن الواجب طاعة اللّه تعالى.

٤ – وتقول خزنة جهنم للكفار : هذه جهنم التي وعدتم ، فكذبتم بها.

---

[119] – الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ(٣٩٧١) حسن

[120] – جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٦٨٤٦) ضعيف

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ لَهُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ حِينَ يَقُولُ : فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : أُولَئِكَ الشُّهَدَاءُ ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ وَقَاهُمُ اللَّهُ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَأَمَّنَهُمْ مِنْهُ وَهُوَ عَذَابُ اللَّهِ يَبْعَثُهُ عَلَى شِرَارِ خَلْقِهِ هُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ مُمَكَّنُونَ فِي الْبَلَاءِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ يُطَوِّلُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِنَفْخَةِ الصَّعْقِ فَيَقُولُ لَهُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الصَّعْقِ ، فَيَصْعَقُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَإِذَا هُمْ خَمِدُوا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ، قَدْ مَاتَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : فَمَنْ بَقِيَ ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَبَقِيتُ أَنَا ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لِيَمُتْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيَتَكَلَّمُ الْعَرْشُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ يَمُوتُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : اسْكُتْ إِنِّي كَتَبْتُ الْمَوْتَ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ تَحْتَ عَرْشِي ، فَيَمُوتَانِ فَيَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ قَدْ مَاتَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ

عَزَّ وَجَلَّ لَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ : مَنْ بَقِي ؟ فَيَقُولُ : بَقِيتَ أَنْتَ يَا رَبِّ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، وَبَقِيتُ أَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَمُتْ حَمَلَةُ عَرْشِي فَيَمُوتُونَ ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْعَرْشَ فَيَقْبَلُ الصُّورَ مِنْ إِسْرَافِيلَ ، ثُمَّ يَأْتِي مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، قَدْ مَاتَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ : مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيتُ أَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ، أَنْتَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي خَلَقْتُكَ لِمَا رَأَيْتَ فَمُتْ ثُمَّ لَا تَحْيَ فَإِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَا وَلَدٍ كَانَ آخِرَ مَا كَانَ أَوَّلًا ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : لَا مَوْتَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَلَا مَوْتَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ طُوَى اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ثُمَّ دَحَا بِهِمَا ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ، ثُمَّ قَالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ، ثُمَّ دَحَا بِهِمَا ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ثُمَّ قَالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ، ثُمَّ دَحَا بِهِمَا ، ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ثُمَّ قَالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ثُمَّ هَتَفَ بِصَوْتِهِ فَقَالَ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ ثُمَّ قَالَ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ ثُمَّ قَالَ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ ثُمَّ قَالَ لِنَفْسِهِ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ثُمَّ بَدَّلَ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ فَبَسَطَهَا وَسَطَحَهَا وَمَدَّهَا مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا " [١٢١]

٥ - إن أعضاء الإنسان التي كانت أعوانا في حق نفسه ، صارت عليه شهودا في حق ربّه. والسبب في التعبير بكلام الأيدي وشهادة الأرجل أن اليد مباشرة للعمل ، فتحتاج إلى شهادة غيرها.

---

[١٢١] - تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (١٥٥٤٩) ضعيف

ومن وقائع الشهادة يوم القيامة أن المشركين قالوا كما حكى القرآن عنهم : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ [الأنعام ٦/ ٢٣] فيختم اللّه على أفواههم ، حتى تنطق جوارحهم.

٦ - لو شاء اللّه لأعمى الكفار عن الهدى ، فلا يبصرون طريقا إلى منازلهم ولا غيرها ، ولكنه لم يفعل رحمة بهم ، وليتمكنوا من النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان باللّه وحده لا شريك له.

٧ - ولو شاء اللّه لبدل خلقة الكفار إلى ما هو أقبح منها جزاء على كفرهم ، ولجعلهم حجرا أو جمادا أو بهيمة ، كالقردة والخنازير ، وحينئذ لا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ، ولا يرجعوا وراءهم ، كما أن الجماد لا يتقدم ولا يتأخر ، ولكنه تعالى أيضا لم يفعل ، لرحمته الواسعة.

٨ - لا حاجة لإطالة أعمار الناس أكثر مما قدر تعالى لهم ، لأنه كلما طال العمر ازداد الإنسان ضعفا. والمقصود بالآية وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ .. الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ، ولهذا قال تعالى في ختام الآية : أَفَلا يَعْقِلُونَ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ، ولا انتقال عنها ، ولا محيد عنها ، وهي الدار الآخرة. ثم أفلا يعقلون أن من فعل هذا بهم قادر على بعثهم مرة أخرى؟!

إثبات وجود الله ووحدانيته وبيان خواص الرسالة

قال تعالى :

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٦٩ ... وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ... لم نعلم محمدا ﷺ الشعر

٦٩ ... وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ... ما هو من طبعه ولا يصلح له ولا يصح منه

٧٢ ... ذَلَّلْنَاهَا ... سخرناها

٧٥ ... جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ... المشركون جند ينصرون الآلهة بدلا من أن تنصرهم

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى أصلين من أصول الدين الثلاثة ، وهما الوحدانية في قوله : وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ والبعث أو الحشر في قوله : هذِهِ جَهَنَّمُ .. اصْلَوْهَا الْيَوْمَ ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة في الآيتين

الأوليين : وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ... الآية. ثم إنه تعالى أعاد الكلام على الوحدانية وأقام الأدلة الدالة عليها في بقية هذه الآيات.

التفسير والبيان :

ينفي الحق تبارك وتعالى صفة الشعر عن القرآن ، وخاصية الشاعرية عن الرسول ﷺ ، فيقول : « وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ »..

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أيضا ، هو أنه وقد حملت الآيات الثلاث قبلها دعوة إلى المشركين أن يستبقوا الإيمان باللّه ، وأن يبادروا باستعمال عقولهم والنظر بها إلى آيات اللّه قبل أن تذهب هذه العقول مع الزمن ــ فقد جاءت تلك الآية تلقاهم برسول اللّه ، وبكتاب اللّه الذي معه ، ليكون لمن انتفع بهذه الدعوة معاودة نظر إلى رسول اللّه ، وإلى كتاب اللّه .. فالضمير فى قوله تعالى : « وَما عَلَّمْناهُ » يعود إلى الرسول الكريم ، وهو وإن لم يجر له ذكر فى الآيات السابقة ، فإنه مذكور ضمنا فى كل آية من آيات الكتاب ، إذ كانت منزلة عليه ..

فهذا رسول اللّه .. ليس بشاعر كما يقولون .. إنه لم يؤثر عنه شعر ، ولم يكن ــ كما عرفوا منه ــ من بين شعرائهم .. فهذه تهمة ظالمة ، يجب أن يبرئوا النبىّ منها ، وأن يلقوه من جديد على أنه ليس بشاعر.

وهذا كتاب اللّه الذي بين يديه .. ليس من واردات الشعر ــ كما يزعمون زورا وبهتانا ــ بل هو « ذكر » يجد الناس من آياته وكلماته ، ما يذكّرهم بإنسانيتهم ، وبما ضيعوا من عقولهم فى التعامل مع الجهالات

والضلالات ، على خلاف الشعر ، فإنه ـــ فى غالبه ـــ استرضاء للعواطف وتغطية على مواطن الرشد من العقول ..

وهذا الكتاب هو « قُرْآنٌ مُبِينٌ » أي كتاب غير مغلق على قارئه ، أو سامعه من قارئ له ، بل هو واضح المعنى ، بيّن القصد ، فلا تعمّى على قارئه أو سامعه أنباء ما به .."

والشعر : كلام عربي له وزن خاص ، ينتهي كل بيت منه بحرف خاص يسمى قافية ، ولا بد في القصيدة من وحدة القافية ، أي الحرف الأخير من كل بيت. ويعتمد الشعر على الخيال الخصب ، والتصوير الرائع ، والعاطفة المشبوبة ، ولا يتبع الشاعر فيه ما يمليه العقل والمنطق ، ولا يتحرى الصدق والدقة في إرسال أوصاف المديح والهجاء والرثاء والغزل وغير ذلك ، ويبالغ الشاعر في التصوير والوصف ، وما همّه إلا انتزاع الإعجاب من السامعين بقوله ، لذا وصف تعالى الشعراء بقوله : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ [الشعراء ٢٦/ ٢٢٥ - ٢٢٦] وقال العرب : أعذب الشعر أكذبه قال أبو حيان : والشعر : إنما هو كلام موزون مقفّى ، يدل على معنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخييل وتزويق الكلام وغير ذلك ، مما يتورع المتدين عن إنشاده ، فضلا عن إنشائه[١٢٢] .

أما القرآن الكريم فخبره صدق ، وكلامه عظة واقعية ، ومنهجه التشريع الذي يسعد البشر ،وقصده الترغيب في فضائل الأعمال وغرر الخصال

---

[١٢٢]- البحر المحيط : ٧/ ٣٤٥

والأخلاق ،والترهيب من الانحراف والرذيلة ،وتقرير أحكام العبادة الصحيحة والمعاملة الرشيدة.

فالآية دلت على نفي كون القرآن شعرا في قوله تعالى : وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ، ونفي كون النبي شاعرا في قوله تعالى : وَما يَنْبَغِي لَهُ وإنما علّمه اللّه القرآن الذي يمتاز بخاصيّة معينة تختلف عن الشعر المعروف وعن النثر المألوف.

وهي رد قاطع على قول العرب أهل مكة : إن القرآن شعر أو سحر أو من عمل الكهان ، وإن محمدا شاعر ، قاصدين بذلك إبطال صفة الوحي به من عند اللّه ، وتكذيب خاصيّة الرسالة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا " أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ ، فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : يَا عَمِّ ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا . قَالَ : لِمَ ؟ قَالَ : لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ قَالَ : قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا قَالَ : فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ ، قَالَ : وَمَاذَا أَقُولُ ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي ، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي ، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ . وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، وَوَاللَّهِ ، إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَا ، وَأَنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ . قَالَ : لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ . قَالَ : فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ : هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ ، فَنَزَلَتْ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا "

وفي رواية عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : جَاءَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ : اقْرَأْ عَلَيَّ ، فَقرَأَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ قَالَ : أَعِدْ ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ [١٢٣] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ " أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ اجْتَمَعَ وَنَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانَ ذَا سِنٍّ فِيهِمْ ، وَقَدْ حَضَرَ الْمَوَاسِمَ ، فَقَالَ : إِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا ، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا وَلَا تَخْتَلِفُوا ، فَيُكَذِّبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَيَرُدُّ قَوْلَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا . فَقَالُوا : فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ ، فَقُلْ ، وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُومُ بِهِ ، فَقَالَ : بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَعْ ، فَقَالُوا : نَقُولُ كَاهِنٌ ، فَقَالَ : مَا هُوَ بِكَاهِنٍ ، لَقَدْ رَأَيْتُ الْكُهَّانَ فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكُهَّانِ ، فَقَالُوا : نَقُولُ : مَجْنُونٌ ، فَقَالَ : مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ ، وَعَرَفْنَاهُ فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ وَلَا تَخَالُجِهِ وَلَا وَسْوَسَتِهِ . قَالُوا : فَنَقُولُ : شَاعِرٌ ، قَالَ : مَا هُوَ بِشَاعِرٍ ، قَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ بِرَجَزِهِ ، وَهَزَجِهِ ، وَقَرِيضِهِ ، وَمَقْبُوضِهِ ، وَمَبْسُوطِهِ ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ . قَالُوا : فَنَقُولُ : سَاحِرٌ قَالَ : فَمَا هُوَ بِسَاحِرٍ : قَدْ رَأَيْنَا السُّحَارَ وَسِحْرَهُمْ ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِ وَلَا عُقَدِهِ ، فَقَالُوا : مَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ ، إِنَّ لِقَوْلِهِ حَلَاوَةً ، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَغَدِقٌ وَإِنَّ فَرْعَهُ

---

[١٢٣] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٠٥) صحيح مرسل

لَجنًا ، فَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، وَإِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ لَأَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ فَتَقُولُوا : هُوَ سَاحِرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَبِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ ، فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ لِلنَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ ، لَا يَمُرُّ بِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا حَذَّرُوهُ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا – إِلَى قَوْلِهِ – سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّفَرِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَيَصِفُونَ لَهُ الْقَوْلَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ أَيْ أَصْنَافًا فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَنْ لَقُوا مِنَ النَّاسِ قَالَ وَصَدَرَتِ الْعَرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْسِمِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا "[١٢٤]

وأما ما ورد على لسان الرسول ﷺ من أقوال موزونة ، فهو مجرد سليقة اتفاقية من غير تكلف ولا صنعة ولا قصد ، فعَنْ أَبِى إِسْحَاقَ . قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ – رضى الله عنهما – أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – لَمْ يَفِرَّ ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً ، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا ، فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –

---

[١٢٤] – دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٠٦) حسن

فَلَمْ يَفِرَّ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا ، وَالنَّبِىُّ – ﷺ – يَقُولُ

« أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ »[١٢٥] .

وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – كَانَ فِى بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ ، فَقَالَ :

« هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ ، وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ » [١٢٦].

بل إن الخليل بن أحمد الفراهيدي ما عدّ المشطور من الرجز شعرا.

ولكنه ﷺ كان يتمثل أحيانا ببعض الأشعار لشعراء العرب ، مثل تمثله ببيت طرفة بن العبد في معلّقته المشهورة[١٢٧] :

سَتُبْدي لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا ... وَيَأْتيك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فجعل يقول: "مَن لم تُزَوّد بالأخبار". فقال أبو بكر: ليس هذا هكذا. فقال: "إني لست بشاعر، ولا ينبغي لي"

وعَنِ الْحَسَنِ " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ : كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

وَرَسُولُ اللَّه ﷺ يَقُولُ : كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا عَلَّمَكَ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَكَ " [١٢٨]

---

[١٢٥] – صحيح البخارى(٢٨٦٤)

[١٢٦] – صحيح البخارى (٢٨٠٢)

[١٢٧] – تفسير ابن كثير – (٦ / ٥٩٠) وفيه جهالة

وثبت في الصحيح عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ :

" لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا ،

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا ،

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا "[129]

وعَنِ الْبَرَاءِ – رضى الله عنه – قَالَ رَأَيْتُ النَّبِىَّ – ﷺ – يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَعَرَ صَدْرِهِ ، وَكَانَ رَجُلاً كَثِيرَ الشَّعَرِ وَهْوَ يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِ اللَّهِ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

إِنَّ الأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ [130] .

وعدم تعليمه الشعر ، لأن اللّه إنما علّمه القرآن العظيم الذى : لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت ٤١/ ٤٢].

والقرآن ليس بشعر ولا تخيلات ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر ، وإنما هو دستور للحياة الإسلامية ، ومواعظ وإرشادات ، كما

---

[128] – الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ (٧٩٣) حسن مرسل

[129] – صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٢٨٣٧)

[130] – صحيح البخارى(٣٠٣٤)

قال تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ أي ما القرآن إلا ذكر من الأذكار ، وموعظة من المواعظ ، وكتاب سماوي واضح ظاهر جلي لمن تأمله وتدبره ، يتلى في المعابد ، ويسترشد في كل شؤون الحياة.

لذا قال تعالى محدّدا مهمة القرآن ومهمة رسول اللّه ﷺ : « لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ » أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض ، كقوله تعالى : لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام ٦/ ١٩] ولكن إنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، ولكي تثبت به وتجب كلمة العذاب على الكافرين ، الممتنعين من الإيمان به ، وهذا في مقابلة صفة المؤمنين وهم أحياء القلوب ، أما الكافرون فهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أشبه بالأموات في الحقيقة ، لعدم تأثرهم بعظات القرآن ، وانعدام يقظتهم لاتباع الحق والهدى.

" أي أن هذا الرسول الكريم ، إنما ينذر بالكتاب الذي معه ، « مَنْ كانَ حَيًّا » أي من كان فى الأحياء من الناس ، بعقله ، ومدركاته ، وحواسه .. فإن من كان هذا شأنه ، كان أهلا لأن ينتفع بما ينذر به .. أما من تخلى عن عقله ، وملكاته ومشاعره فلا يحسب فى الأحياء ، ولا ينتفع بالنذر .. بل سيظل على ما هو عليه من كفر وضلال ، « ويحق عليه القول ، أي يترل به العذاب ، الذي توعد به اللّه سبحانه وتعالى ، أهل الكفر والضلال .."

والخلاصة : أن الآية دالة على أن القرآن رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين.

ثم أعاد تعالى الكلام في الوحدانية وأتى ببعض أدلتها ، فقال « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ »

" هو عرض للآيات الكونية ، التي تكشف عنها الآيات القرآنية لأبصار هؤلاء المشركين ، الذين دعوا إلى إعادة النظر فى كتاب اللّه ، وإلى إخلاء مشاعرهم من القول بأنه شعر ، وأن الرسول الذي جاء به من عند اللّه شاعر ..فهذا الكتاب الذي بين أيديهم ليس شعرا ، إنه ذكر وقرآن مبين ..ومن الذكر الذي فى هذا القرآن ــ هذا العرض الذي تعرض فى آياته هذه المظاهر من قدرة اللّه ، وصنعة يده ..فهذه الأنعام التي يملكها هؤلاء المشركون ، والتي فيها عبرة وذكرى لمن سمع ، ووعى .. من خلقها ؟ ومن جعل لهم سلطانا عليها ؟ ومن وضعها فى أيديهم وجعلها ملكا خالصا لهم ؟ ..

ألا فلينظروا بعقولهم إلى هذه الأنعام ، وليجيبوا على هذه الأسئلة التي تطلع عليهم منها ..إنها صنعة اللّه ، وفى ملكه .. ولكنه ــ سبحانه ــ قد ملّكهم اللّه إياها ، وأقدرهم على تسخيرها ، والانتفاع بها .."

قوله تعالى :« وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ » أي أنه لو لا أن ذللّها اللّه لهم ، وجعلها فى خدمتهم ، لما قدروا عليها ، ولما أمسكوا بها .. إذ كانت أقوى قوّة منهم .. ولو شاء اللّه لجعلها فى طبائع الحيوانات المفترسة ، التي لا تألف الناس ، ولا يألفها الناس .. فلا يكون لهم منها نفع أبدا .."

أي أو لم يشاهد هؤلاء المشركون باللّه عبدة الأصنام وغيرهم أن اللّه خلق لهم هذه الأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) التي سخرها لهم ،

وأوجدها من أجلهم من غير وساطة ولا شريك ، وجعلهم مالكين لها ، يقهرونها ويضبطونها ويتصرفون بها كيف شاؤوا ، وهي ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، ولو شاء لجعلها مستعصية عليهم ، مستوحشة نافرة منهم ، فلا يستفيدون منها ، فترى الولد الصغير يقود البعير الكبير ، بل ولو كان القطار مائة بعير أو أكثر.

ثم أبان اللّه تعالى منافعها الملموسة ، فقال : وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ أي وجعلناها لهم مسخّرة مذللة منقادة لهم ، لا تمتنع مما يريدون منها ، حتى الذبح ، فمنها مركوبهم الذي يركبونه في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، ومنها ما يأكلون من لحمها.

« وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ » أي ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها ، كالاستفادة من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، وهي لهم مشارب أي يشربون من ألبانها ، أفلا يشكرون خالق ذلك ومسخره وموجد هذه النعم لهم ، بعبادته وطاعته ، وترك الإشراك به غيره.

وهذا حثّ صريح على شكر الخالق المنعم بعبادته وطاعته ، وهو أبسط ما يوجبه الوفاء ، وتقدير المعروف والإحسان.

ولكن الكفار تنكروا لهذا الواجب ، وكفروا بأنعم اللّه ، واستمروا في ضلالهم وتركوا عبادة اللّه ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة ، فقال تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ».هو عطف حدث على حدث .. وبين الحدثين تغاير كبير ، وتفاوت بعيد ، والشأن بين المتعاطفين أن يتقاربا ، ويتجاوبا .. ولكن

فى هذا العطف فضح لضلال المشركين ، وانحرافهم هذا الانحراف الحادّ ، عن الطريق السوىّ .. حيث يقابلون الإحسان بالكفران.

فاللّه سبحانه وتعالى يفضل عليهم بهذه النعم ، خلقا ، وتسخيرا ، وتذليلا ..وهم يكفرون به ، ويحادّونه ، ويتخذون من دونه آلهة .. فما أبعد ما بين الإحسان والكفران!.

وقوله تعالى : « لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ » بيان للغاية التي يقصد إليها المشركون من اتخاذ هذه الآلهة من دون اللّه .. إنهم يرجون من وراء ذلك الاستعانة بها على ما يغلبهم من شئون الحياة ، وما يلقاهم على طريقها من عقبات ..وهيهات .. ضعف الطالب والمطلوب ..!

ولكنها في الواقع لا تقدر على شيء ، ولا تحقق فائدة لعبادها ، لذا قال تعالى مبينا خيبة أملهم : « لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ».هو ردّ على معتقد المشركين فى آلهتهم .. فهؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من دون اللّه معبودين لهم ، يرجون منهم نصرا ـــ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون لهم نصرا ، بل وأكثر من هذا ، فإن آلهتهم هذه ، محتاجة إلى من يحرسها ، ويدفع عنها يد المعتدين ..

وهؤلاء المشركون هم أنفسهم ، جند محضرون ، يقومون على حماية هذه الآلهة ، وحراستها ، وحراسة ما تزيّن من به حلىّ ، وما يلقى عليها من ملابس ..ـــ فقوله تعالى : « وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ » ـــ الضمير « هم » يعود إلى المشركين ، وفى قوله تعالى : « مُحْضَرُونَ » ـــ إشارة إلى أن هناك قوى مسلطة على هؤلاء المشركين ، تجعل منهم جندا لخدمة هذه الآلهة .. وهذه القوى هى تلك المشاعر المتولدة من

معتقدهم الفاسد ، وتصورهم المريض ، حيث تسوقهم هذه المشاعر الضالة ، سوقا ، إلى التزلّف لهذه الدّمى ، والولاء الأعمى لها .."

وقوله : مُحْضَرُونَ أي يخدمونهم ، ويدفعون عنهم ، ويغضبون لهم ، وليس للآلهة استطاعة على شيء ، ولا قدرة على النصر. أو إنهم يوم القيامة محضرون لعذابهم ، لأنهم يجعلونهم وقودا للنار.

ثم سلّى اللّه رسوله عما يلقاه من أذى المشركين ، فقال : « فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ .. إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ ».هو عزاء كريم ، للنبى الكريم ، من ربّ كريم ، مما يرميه به قومه من يذىء القول وساقطه .. « فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ » هذا الذي يقولونه عنك ، من أنك كاذب ، وشاعر ، ومجنون ، ولا يحزنك ما يقولونه فى آلهتهم ، وأنها شفعاء لهم من دون اللّه ..

وفى قوله تعالى : « إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ ».. تهديد للمشركين ، ووعيد لهم بالحساب الشديد ، والعذاب الأليم ، فاللّه سبحانه يعلم ما يسرون وما يعلنون ، من كفر ، وضلال ، وبهتان ، وهو سبحانه محاسبهم ومجازيهم عليه .."

ومضات

في هذا القطاع الأخير من السورة تستعرض كل القضايا التي تعالجها السورة .. قضية الوحي وطبيعته وقضية الألوهية والوحدانية. وقضية البعث والنشور .. تستعرض في مقاطع مفصلة. مصحوبة بمؤثرات قوية في إيقاعات عميقة. كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهي تعمل كل شيء في هذا الكون وتمسك بمقاليد الأمور كلها. ويتمثل هذا المعنى مركزا في

النهاية في الآية التي تختم السورة : «فَسُبْحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» .. فهذه اليد القوية المبتدعة خلقت الأنعام للبشر وذللتها لهم. وهي خلقت الإنسان من نطفة.

وهي تحيي رميم العظام كما أنشأها أول مرة. وهي جعلت من الشجر الأخضر نارا. وهي أبدعت السماوات والأرض. وفي النهاية هي مالكة كل شيء في هذا الوجود .. وذلك قوام هذا المقطع الأخير ..

«وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ - وَما يَنْبَغِي لَهُ - إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ. لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» ..

وردت قضية الوحي في أول السورة : «يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ ..» .. والآن تجيء في صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبي - ﷺ - بأنه شاعر ووصف القرآن الذي جاء به بأنه شعر.

وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك. وأن ما جاءهم به محمد - ﷺ - قول غير معهود في لغتهم. وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر. إنما كان هذا طرفا من حرب الدعاية التي شنوها على الدين الجديد وصاحبه - ﷺ - في أوساط الجماهير. معتمدين فيها على جمال النسق القرآني المؤثر ، الذي قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه.

وهنا ينفي اللّه - سبحانه - أنه علم الرسول الشعر. وإذا كان اللّه لم يعلمه فلن يعلم. فما يعلم أحد شيئا إلا ما يعلمه اللّه ..

ثم ينفي لياقة الشعر بالرسول - ﷺ - : «وَما يَنْبَغِي لَهُ» فللشعر منهج غير منهج النبوة.

الشعر انفعال. وتعبير عن هذا الانفعال. والانفعال يتقلب من حال إلى حال. والنبوة وحي. على منهج ثابت.

على صراط مستقيم. يتبع ناموس اللّه الثابت الذي يحكم الوجود كله. ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة ، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال.

والنبوة اتصال دائم باللّه ، وتلق مباشر عن وحي اللّه ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى اللّه. بينما الشعر - في أعلى صوره - أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته. فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد ، وفورة لحم ودم! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس. هذه - في أعلى صورها - أشواق تصعد من الأرض. وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء .. «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ» ..ذكر وقرآن .. وهما صفتان لشيء واحد. ذكر بحسب وظيفته. وقرآن بحسب تلاوته. فهو ذكر للّه يشتغل به القلب ، وهو قرآن يتلى ويشتغل به اللسان. وهو منزل ليؤدي وظيفة محدودة : « لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» ..

ويضع التعبير القرآني الكفر في مقابل الحياة. فيجعل الكفر موتا ، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة.

ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول - ﷺ - لينذر من به حياة. فيجدي فيهم الإنذار ، فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير وظيفة القرآن بالقياس إليهم هي تسجيل الاستحقاق للعذاب ، فإن اللّه لا يعذب أحدا حتى تبلغه الرسالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معذرة! وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان : فريق يستجيب فهو حي. وفريق لا يستجيب فهو ميت.

ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول ، وحق عليه العذاب!

والمقطع الثاني في هذا القطاع يعرض قضية الألوهية والوحدانية ، في إطار من مشاهدات القوم ، ومن نعم البارئ عليهم ، وهم لا يشكرون : «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ؟ وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ؟ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ. لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ. فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ» ..

أو لم يروا؟ فآية اللّه هنا مشهودة منظورة بين أيديهم ، ليست غائبة ولا بعيدة ، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير .. إنها هذه الأنعام التي خلقها اللّه لهم وملكهم إياها. وذللها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها ، وينتفعون بها منافع شتى .. وكل ذلك من قدرة اللّه وتدبيره ومن إيداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام ، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها. وجعلها مذللة

نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان. وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئا. وما يملكون أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.

وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب اللّه في خصائصها أن تكون ذلولا لهم! .. «أَفَلا يَشْكُرُونَ؟» ..

وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم. فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم اللّه. فيض يتمثل في كل شيء حوله. وتصبح كل مرة يركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشرب جرعة من لبن ، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن. أو يلبس ثوبا من شعر أو صوف أو وبر .. إلى آخره إلى آخره .. لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته. ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون الكبير. وتعود حياته كلها تسبيحا للّه وحمدا وعبادة آناء الليل وأطراف النهار ..

ولكن الناس لا يشكرون. وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون اللّه : «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ. لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» : وفي الماضي كانت الآلهة أصناما وأوثانا ، أو شجرا أو نجوما ، أو ملائكة أو جنا .. والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض. ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد. وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة اللّه وفي اعتمادهم على أسناد أخرى غير اللّه. والشرك ألوان ، تختلف باختلاف الزمان والمكان.

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر. بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدي عليها معتد أو يصيبها بسوء ، فكانوا هم جنودها وحماها المعدين لنصرها : «وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» ..

وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير. غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل. فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيرا عن عباد تلك الأصنام والأوثان. فهم جند محضرون للطغاة. وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم. ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين! إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها. وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أي اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية! ولا عصمة للبشرية إلا بالتوحيد الخالص الذي يفرد اللّه وحده بالألوهية. ويفرده وحده بالعبادة. ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد. ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم.

«فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ. إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ».

الخطاب للرسول - ﷺ - وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون اللّه آلهة. والذين لا يشكرون ولا يذكرون. ليطمئن بالا من ناحيتهم. فهم مكشوفون لعلم اللّه. وكل ما يدبرونه وما يملكونه تحت عينه.

فلا على الرسول منهم. وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة. واللّه من ورائهم محيط ..

ولقد هان أمرهم بهذا. وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على اللّه. وهو يعلم أن اللّه يعلم ما يسرون وما يعلنون. وأنهم في قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون![١٣١]

وقال دروزة : " والآية الأولى تنفي عن النبي ﷺ الشاعرية علما وترفُّعاً وتقرر أن القرآن ليس إلّا تذكيراً للناس وقرآنا مبينا واضحا.

والآية الثانية تعلن أن النبي ﷺ إنما أرسل وأنزل عليه القرآن لينذر الناس فينتفع بذلك من كان ذا عقل متأمل وقلب حيّ سليم ويحق القول وتقوم الحجة على الجاحدين.

وبرغم ما يبدو من استقلال الآيتين بموضوع منفصل عما قبلهما فإن ما جاء بعدهما هو استمرار للسياق الأول في التنديد بالكفار وحكاية أقوالهم ومواقفهم بحيث يمكن أن يقال إنهما متصلتان بالسياق السابق واللاحق أيضا وإنهما جاءتا بمثابة تقرير لمهمة النبي ﷺ وهدف ما يوحيه اللّه إليه من قرآن. وهذا الأسلوب النظمي قد تكرر في القرآن. ويبدو أن حكمة هذا الأسلوب هنا هي تقرير أن ما يتلوه النبي ﷺ من آيات الإنذار والوعيد والتقريرات عن عظمة اللّه ووصف مشاهد الآخرة ومصائر الناس فيها ليس من قبيل الشعر وإنما هو قرآن رباني فيه كل الحق والحقيقة.

على أن الآيتين احتوتا موضوعا جديدا ذاتيا أيضا. وهو نفي شاعرية النبي ﷺ والقرآن. فلقد رأى الكفار النبي ﷺ يتلو الآيات البليغة

---

[١٣١] – في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٧٤

القوية النافذة إلى أعماق النفوس والمؤثرة في العواطف والمشاعر فظنوا ذلك من قبيل الشعر البليغ الذي اعتادوا سماعه والتأثّر به والتحمّس له.

ولم يرد في السور السابقة حكاية عن نسبة الشعر إلى النبي ﷺ من قبل الكفار. غير أن الآيتين تلهمان بقوة أن هذا مما كانوا يقولونه قبل نزولهما. ولقد حكته عنهم آيات عديدة في سور أخرى بعد هذه السورة حيث اقتضت حكمة التتريل ذلك. منها آية سورة الأنبياء هذه : بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) وآية سورة الطور هذه : أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠).

وفي نفي شاعرية النبي ﷺ وتقرير خطورة مهمته في عبارة {وَما يَنْبَغِي لَهُ} وكذلك في تقرير كون القرآن ذكرا وإنذارا قصدٌ آخرُ على ما يتبادر لنا وهو توكيد سموّ المصدر القرآني وعلوّ أهدافه وتجرّده عن المبالغات والأكاذيب والاندفاع في العاطفة والخيال ، شأن الشعراء وما يصدر عنهم ، ولفت نظر السامعين إلى أن ما يتلوه هو ذكر وقرآن رباني فيه الصدق والحقيقة وفيه الهدى والموعظة وفيه الدعوة الخالصة إلى اللّه وصراط المستقيم وفيه أسمى مبادئ الخير والصلاح وفضائل الأخلاق والنظم وفيه الإنذار والتبشير والحرص على هداية الناس وتحرير نفوسهم وقواهم وعقولهم والتسامي بها إلى مراتب الكمال الخلقي والاجتماعي والإنساني.

وكل هذا هو من مهمات النبوّة وأعلامها ومظاهرها وليس فيه شيء يمتّ إلى الشعر والشعراء. ولقد زعم الكفار بالإضافة إلى أنه شاعر أنه

يتلقى شعره من شياطين الجنّ على ما كانوا يعتقدونه بالنسبة لنوابغ الشعراء وعباقرتهم فأنزل اللّه آيات عديدة في سورة الشعراء في هذا الصدد منها : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) ومنها : وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (٢١٠) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ،ومنها : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) حيث انطوى في هذه الآيات تقرير قويٌّ في تزييف الشعر والشعراء ونفيٌ لشاعرية النبي ﷺ والقرآنِ ،ومقارنةٌ رائعةٌ بين الشعر والقرآن وبين الشعراء والنبي صلى اللّه عليه وسلم. فالشياطينُ إنما تنزل بالشعر على الشعراء لا على الأنبياء ، ومعظم الشعراء كاذبون أفّاكون أثيمون وفي كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون ولا يتبعهم إلّا الغاوون الضالون في حين أن النبي ﷺ معروف بكل خلق كريم و يدعو إلى اللّه وحده وإلى مكارم الأخلاق وفضائل الآداب والحقّ والهدى وينهى عن الشرك والإثم والفواحش. ويتبعه طائفة عرفت بكرم الأخلاق والصفات فلا يمكن أن يكون النبي شاعرا ولا يمكن أن يكون القرآن شعرا من نوع الشعر الذي يقوله

الشعراء وتتزل به الشياطين. وإنما أنزله اللّه عزّ وجلّ ، ودليلُ ذلك أنه متسقٌ مع كتب اللّه الأولى التي أنزلها على أنبيائه الأولين والتي يعرف العرب السامعون خبرها من أهل الكتاب الذين هم بين ظهرانيهم.

هذا ، ومن الممكن أن يستدلَّ من الآيات على أن العرب كانوا يرون في القرآن نمطاً من أنماط الشعر ، وأن الشعر عندهم لم يكن محصورَ المفهوم في ما يكون منظوما موزونا مقفّى ، فقد قالوا إن النبي ﷺ شاعر في حين أن القرآن ليس شعرا حسب تعريف الشعر العربي المعتاد. ولو لم يسمعوا ما يصحُّ أن يطلق عليه في نظرهم اسم الشعر لما قالوا إنه شاعر ، ولعلّهم رأوا في السور والفصول القرآنية المتوازنة المقفّاة مثل النجم والأعلى والليل والشمس والقارعة إلخ ما برّر لهم إطلاق الشعر على القرآن والشاعر على النبي صلى اللّه عليه وسلم.

وذكر بعض المثلة التي تمثل فيها النبي ﷺ ببعض الشعر أو الرجز ، ثم قال معقباً : " والذي يتبادر لنا أنه لا منافاة بين أن يتمثّل النبي ﷺ ببعض الشعر بوزنه الصحيح بل وأن يحفظ أكثر من بيت من شعر شعراء العرب الذي يجري على لسانه بعض أبيات على نمط الشعر المتواتر وبين مدى الجملة القرآنية. وأن نفي ذلك عنه غير متّسق مع طبيعة الأشياء من حيث إن النبي ﷺ كان يعيش حياة العرب التي كان للشعر فيها حيّزٌ كبيرٌ. وإن المدى الأوجه والأصح للجملة على ضوء ما تلهمه آيات سورة الشعراء التي أوردناها وشرحناها قبل قليل هو أن

النبي ﷺ قد صُرف عن معاطاة الشعر وأن ذلك لا يتناسب مع مهمة وجلال النبوّة."[١٣٢]

وقال التعليق على الايات (٧١-٧٣) : " في الآيات تذكير استنكاري للسامعين بالأنعام التي سخّرها اللّه لهم لينتفعوا بها في مختلف وجوه النفع من ركوب وأكل وشرب ولبس ، وتنديد بهم لعدم شكرهم على نعمه والاعتراف بفضله وربوبيته.

وفي الآيات عود على بدء في التنديد بالكافرين والمكذّبين وربط للسياق ، كأنما فصول مشهد الآخرة وما بعدها جاءت استطرادية. وهكذا تتصل فصول السورة ببعضها وتبدو صورة رائعة من صور التساوق في النظم القرآني.

ولقد كانت الأنعام من أهمّ ما ينتفع به العرب. فجاء التذكير بنعمة اللّه عليهم بها قوي الاستحكام. وفي هذا مظهر من مظاهر التساوق بين الأساليب القرآنية وأذهان السامعين مما تكرر كثيرا في مناسبات وصيغ متنوعة.

وقد يقال إن اللّه خلق الأنعام كما خلق غيرها من الدواب النافعة والمؤذية بمقتضى الناموس العام. وإن في القول بأن اللّه قد خلقها للناس إشكالا ، والذي يتبادر لنا أن المقصد من ما جاء في الآيات وأمثالها المتكررة في القرآن هو تذكير السامعين بما أقدرهم اللّه عليه من تسخير الأنعام والانتفاع بها شتى المنافع التي فيها قوام حياتهم وبما يوجبه ذلك

[١٣٢] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٣٩)

عليهم من الإخلاص له وشكره وبما في الاتجاه نحو غيره أو إشراك غيره معه انحراف وشذوذ. وفي الآيات نفسها وما يليها من الآيات ما يؤيد هذا التوجيه."[١٣٣]

وقال التعليق على الآيتين (٧٤- ٧٥) : " والآيتان استمرار في السياق والتنديد بالكافرين على اتخاذهم آلهة غير اللّه رجاء أن ينصروهم في حين أنهم عاجزون عن ذلك.

وقد أوّل المفسرون الفقرة الأخيرة من الآية الثانية تأويلات متعددة. منها أن الكفّار يتخذون الأصنام آلهة لهم مع أنهم هم جند لهم يحمونهم ويدفعون عنهم الأذى والعدوان. ومنها أن الآلهة سوف يكونون مع الكفار يوم القيامة جندا واحدا ولكنهم لن يستطيعوا لهم نصرا حيث يطرحون جميعا في النار. وكلا التأويلين وجيه وإن كنا نرجح الأول. وكلاهما منطو على السخرية بالكافرين والتسفيه لعقولهم وبقصد الإفحام والتدعيم كما هو المتبادر."

وقال في التعليق على آية (فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (٧٦) : في الآية تسلية للنبي ﷺ وقد جاءت معترضة في السياق. وقد أوردناها لحدتها لأن من المحتمل أن تكون التسلية في صدد ما يثير نفس النبي ﷺ من اتخاذ الكفار آلهة لهم غير اللّه والاستنصار بهم ، أو في صدد نعتهم إياه بالشاعرية وتكذيبهم القرآن أو في صدد ما

---

[١٣٣] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٤٣)

حكته الآيات التالية من تحدي بعض زعماء الكفار ومكابرتهم وتكذيبهم البعث الأخروي بعد أن يصبحوا رميما.

وقد تكرر مثل ذلك حيث اقتضته حكمة التنزيل بسبيل تثبيت النبي ﷺ وتقويته إزاء ما كان يلقاه من قومه من مواقف ويسمعه من نعوت كانت تثيره وتحزنه."[134]

ما ترشد إليه الآيات

دلت الآيات على ما يلي :

١ - ليس القرآن شعرا ، ولا محمّد ﷺ شاعرا ، فلا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا به ، كسر وزنه ، وإنما كان همّه فقط الإفادة من المعاني.

٢ - إن إصابة النبي ﷺ الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر ، فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن ، وليس ذلك شعرا ولا في معناه ، كقوله تعالى : لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران ٣/ ٩٢] وقوله : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ [الصف ٦١/ ١٣] وقوله : وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ [سبأ ٣٤/ ١٣] وقوله : فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ [الكهف ١٨/ ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

٣ - وَفِي الْعُتْبِيَّةِ أَنَّ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ إنْشَادِ الشِّعْرِ فَقَالَ : مَا يَخِفُّ مِنْهُ وَلَا يَكْثُرُ وَمِنْ عَيْبِهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ."[135]

---

[134] - التفسير الحديث لدروزة - (٣ / ٤٤)

[135] - المنتقى - شرح الموطأ - (٤ / ٢٦٨)

٤ – ما ينبغي ولا يصح للنبي ﷺ أن يقول الشعر ، وذلك من أعلام النبوة ، ولا اعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول ﷺ ، لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشعر ، ليس بشعر ، ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا.

٥ – إن الذي يتلوه النبي ﷺ على الناس هو ذكر من الأذكار ، وعظة من المواعظ ، وقرآن بيّن واضح مشتمل على الآداب والأخلاق ، والحكم والأحكام ، والتشريع المحقق لسعادة البشر.

٦ – إن الغرض من إنزال القرآن إنذار من كان حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، وإيجاب الحجة بالقرآن على الكفرة.

٧ – من أدلة وجود اللّه ووحدانيته : خلق الإنسان والحيوان والنبات ، فإنه سبحانه خلق كل ذلك ، وأبدعه ، وعمله من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة.

ومن فضله ونعمته على الناس تذليل الأنعام لهم ، وتسخيرها لمنافعهم في الركوب ، وأكل اللحوم وشرب الحليب والألبان ، وصنع الأسمان ، حتى إن الصبي يقود الجمل العظيم ويضربه ويوجهه كيف شاء ، وهو له طائع. وهذا كله وغيره يوجب شكر الخالق المنعم وهو اللّه على نعمه ، بعبادته وطاعته وإخلاص ذلك له.

٨ – بالرغم من وجود الآيات الدالة على قدرة اللّه ، اتخذ الكفار المشركون من دون اللّه آلهة ، لا قدرة لها على فعل ، طمعا في نصرتها وأملا في مساعدتها لهم إن نزل بهم عذاب.

والحقيقة أن تلك الآلهة المزعومة لا تستطيع نصر عابديها ، ولا جلب الخير لهم ، ولا دفع الشر والضر عنهم ، ومع ذلك فإن الكفار جند طائعون لهذه الآلهة ، يمنعون عنهم ويدفعون عنهم ، ويغضبون لهم في الدنيا ، فهم لها بمنزلة الجند والحرس ، وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وقيل : إن الآلهة جند للعابدين يوم القيامة ، محضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْشَةً ، ثُمَّ قَالَ : " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ النَّاسُ : أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ أَبُو البَشَرِ ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ

يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ ، مُوسَى فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا ، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي

، ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي ، فَأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ - أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى "[136]

٩ - سلّى اللّه عز وجل نبيه ﷺ ، فقال له : لا يحزنك قولهم : شاعر ، ساحر ، روي أن القائل عقبة بن أبي معيط ، فنفى اللّه ذلك عن رسوله.

١٠ - إن اللّه تعالى عليم مطلع على ما يسرّ الكافرون ويظهرون من القول والعمل ، فيجازيهم بذلك يوم القيامة.

---

[136] - صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٤٤٥٦)

إثبات البعث

قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

٧٧ ... خَصِيمٌ ... مبالغ في الخصومة

٧٨ ... رَمِيمٌ ... بالية

٨٣ ... مَلَكُوتُ ... الملك التام

سبب النزول :

عَنْ أَبِي مَالِكٍ ، قَالَ : إِنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ جَاءَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَفَتَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَيَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَّ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، " يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا ، ثُمَّ يُمِيتُكَ ، ثُمَّ يُحْيِيكَ ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ

جَهَنَّمَ " قَالَ : فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ يَس : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ "[١٣٧]

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة والسّدّي نحوه ، وسمّوا الإنسان أبي بن خلف. وهذا هو الأصح كما قال أبو حيان ، لما رواه ابن وهب عن مالك.

وبناء عليه ، قال المفسّرون : إن أبي بن خلف الجمحي جاء إلى رسول اللّه ص بعظم حائل ، ففتته بين يديه ، وقال : يا محمد ، يبعث اللّه هذا بعد ما أرمّ؟ فقال : نعم ، يبعث اللّه هذا ، ويميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت هذه الآيات.[١٣٨]

وعلى أي حال ، يقول علماء أصول الفقه : إن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، كما في قوله تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها [المجادلة ٥٨/ ١] نزلت في امرأة واحدة ، وأراد الكل في الحكم ، فكذلك كل إنسان ينكر اللّه أو الحشر ، فهذه الآية ردّ عليه ، فتكون الآية عامة.

المناسبة :

بعد بيان الأدلة الدّالة على قدرة اللّه عزّ وجلّ ، ووجوب طاعته وعبادته ، وبطلان الشرك به ، ذكر تعالى شبهة منكري البعث ، وأجاب عنها

---

[١٣٧] - الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (٣٧٨٦) صحيح مرسل

[١٣٨] - الدر المنثور - (٨ / ٣١٩) وتفسير ابن أبي حاتم - (١٢ / ٧٥) وتفسير ابن كثير - (٦ / ٥٩٣) وتفسير الطبري - (٢٠ / ٥٥٣و٥٥٤) وتفسير اللباب في علوم الكتاب - (٦٠ / ٢٣٦)

بأجوبة ثلاثة : هي أن الإعادة مثل البدء بل أهون ، وقدرة اللّه على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، وخلق ما هو أعظم من الإنسان ، وهو خلق السموات والأرض ، وفي النهاية : فورية تكوين الأشياء بقول : كُنْ فَيَكُونُ.

التفسير والبيان :

قوله تعالى :«أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ».

"هو مراجعة لهؤلاء المشركين ، وتنبيه لهم من هذه الغفلة المستولية عليهم ..وفى هذا الاستفهام التقريرى الموجه إلى الإنسان على إطلاقه ــ دعوة إلى كل إنسان أن ينظر فى نفسه ، وأن يمد بصره ، إلى نقطة الابتداء فى حياته ، ثم ليسير مع نقطة الابتداء هذه فى الطريق الذي سلكه ، حتى صار هذا الإنسان ، الذي يجادل ، ويخاصم ، ويقف من اللّه موقف المحادّ المحارب!.

ألم يكن هذا الإنسان نطفة ؟ .. إنه لو نظر الإنسان فيها لأنكر نفسه ، وما وقع فى تصوره أنه كان جرثومة من آلاف الجراثيم السابحة فى هذه النطفة ..

وأين تلك النطفة أو هذه الجرثومة العالقة بالنطفة ــ أين هي من هذا الإنسان ، الذي أبدعته يد القدرة هذا الإبداع العظيم الحكيم ؟

ألا ما أضأل شأن الإنسان ، وما أعظمه! ما أضأله نطفة ، وما أعظمه رجلا ما أضأله ضالا ضائعا ، كضلال هذه النطفة وضياعها ..

وما أعظمه إنسانا رشيدا ، عاقلا مؤمنا ، فى ثوب الإنسانية الرشيدة العاقلة المؤمنة!."

ألم يعلم كل إنسان أننا بدأنا خلقه من نطفة (مني) من ماء مهين ، هي أضعف الأشياء ، ثم جعلناه بشرا سويّا ، ثم تراه يفاجئنا بأنه ناطق مجادل بيّن جريء في جدله ، فقوله خَصِيمٌ ناطق ، ومُبِينٌ إشارة إلى قوة عقله.

والمراد : أو لم يستدلّ من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن اللّه ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء ضعيف حقير ، كما قال تعالى : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ، فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ ، إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [المرسلات ٧٧/ ٢٠ - ٢٢] ، وقال سبحانه : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ [الإنسان ٧٦/ ٢] أي من نطفة من أخلاط متفرقة.

فشأن هذا المخلوق أن يشكر النعمة ، لا أن يطغى ويتجبر ، وينكر البعث والإعادة.

قوله تعالى:« وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ». "هو عطف حدث على حدث ، عطف خلق اللّه سبحانه الإنسان من نطفة ، ثم قيام إنسان من هذه النطفة يجادل اللّه ، ويختصمه ، ويضرب له الأمثال ، احتجاجا وحجة!.

ففاعل الفعل « ضرب » يعود إلى هذا الإنسان الخصيم المبين ، الذي تولد من النطفة!.

إنه لم يقف عند هذه الدعوة التي دعاه اللّه سبحانه وتعالى بها إلى أن ينظر فى خلقه ، وأن يعرف من أين جاء ، وكيف كان ، ثم كيف صار

ـــ لم يقف عند هذه الدعوة ، بل أقبل يحاجّ اللّه ويجادله ، ويضرب الأمثال له .. « إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (٣٤ : إبراهيم) ..

والمثل الذي ضربه هذا الكافر ، ليدلل به على معتقده الفاسد ، فى إنكار البعث ـــ هذا المثل ، هو أنه نظر فى هذه العظام البالية التي يراها فى قبور الموتى ، ثم اتخذ منها معرضا يعرضه على الناس ، ويسألهم هذا السؤال الإنكارى الساخر : « مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » ؟ أهذه العظام التي أبلاها البلى تعود ثانية كما كانت ، ويتشكل منها أصحابها الذين كانوا يحيون بها فى الحياة ؟

أهذا معقول ؟ إن محمدا يقول هذا .. فما ذا تقولون أنتم أيها الناس فيمن يقول هذا القول ؟ ألا ترجمونه ؟ ألا تسخرون من جنونه ؟ .

وقوله تعالى : « وَنَسِيَ خَلْقَهُ » جملة حالية ، أي أن هذا الكافر ضرب هذا المثل ناسيا خلقه ، ولو ذكر خلقه وكيف كان بدؤه ، ثم كيف صار ـــ لرأى بعينيه ـــ قبل أن يرى بعقله ـــ إن كان له عقل ـــ أن هذه النطفة التي أقامت منه هذا الإنسان الخصيم المبين ، هى أقل من العظام شأنا ، وأبعد منها عن مظنّة الحياة.

إذ كانت النطفة لا تعدو ـــ فى مرأى العين ـــ أن تكون نقطة ماء قذرة أشبه بالمخاط .. أما العظام فهى تمثل حياة كاملة ، كانت تسكن فى تلك العظام ـــ إنها عاشت فعلا حياة كاملة ، وكان منها إنسان كامل ، كهذا الإنسان ، الذي يجادل ، ويضرب الأمثال للّه ..

فهذه العظام ، تمثل حياة لها تاريخ معروف .. أما النطفة ، فلا ترى عين هذا الجهول فيها أثرا للحياة."

فأجابه اللّه تعالى بقوله : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ».هو الرد المفحم على هذا السؤال الإنكارى .. « مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » ؟ إن الذي يحييها ، هو الذي أنشأها أول مرة .. لقد أنشأ هذه العظام من نطفة ، وألبسها الحياة ، ثم أماتها .. ثم هو الذي يحييها .. إنه إعادة لشىء كان بعد أن لم يكن ، وإعادة بناء الشيء ، أهون ــ فى حسابنا ــ من ابتداعه ، واختراعه أصلا ..

وفى قوله تعالى : « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » ــ إشارة إلى علم اللّه المحيط بكل شىء ، ومن كان هذا علمه فلن يعجزه شىء .. فبالعلم استطاع الإنسان أن يحرك الجماد ، وينطقه ، وبالعلم استطاع أن ينقل الأصوات ، وصور المرئيات من طرف الأرض إلى طرفها الآخر فى لحظة عين ، أو خفقة قلب .. وبالعلم يستطيع الإنسان أن يفعل الكثير ، مما تعدّ هذه الأشياء من نوافل علمه ..

فكيف بعلم اللّه الذي وسع كل شى ء ؟ أيعجزه شى ء ؟ إن من يعجز عن أي شىء لا يستحق أن يضاف إليه العلم كله .. إذ لو كان معه العلم كله لما أعجزه شى ء ؟ واللّه سبحانه وتعالى : « بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٢٩ : البقرة)"

وقد قال العلماء : إن الذرّة لا تفنى ، وتقرر نظرية (لافوازيه) المعروفة : أنه لا يوجد شيء من العدم ، والموجود لا ينعدم.

ودليل ثان هو : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ». أي وهو الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر يانع ، ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار

، ومن قدر على ذلك ، فهو قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء ، فهذا التحوّل والتقلّب من عنصر الرطوبة إلى عنصر الحرارة ، يدل على إمكان إعادة الرطوبة إلى ما كان يابسا باليا. والمشاهد أن شجر السّنط يوقد به النار وهو أخضر.

وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار ، وليس معه زناد ، فيأخذ عودين أخضرين منهما ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد تماما. ومثل ذلك احتكاك السّحب المولّد لشرارة البرق.

"هذه بعض آيات من علم اللّه .. إنه سبحانه خلق الشجر ، وقد امتلأ كيانه بالماء يجرى فى أصوله ، وفروعه وأوراقه .. ثم جعل من طبيعة هذا الشجر أن يجفّ ، وأن يقبل الاحتراق ، وإذا هو فى النار ، قطع من الجمر! فأين هذا الشجر الأخضر ، من هذا الجمر الملتهب ؟

وكما يخرج اللّه سبحانه النار من الماء ، يخرج سبحانه الميت من الحىّ ، ويخرج الحىّ من الميت ..

هذه صورة من الإبداع فى الخلق ، لا تحتاج فى وضوحها إلى علم ، وتجربة ، وإنما بحسب الإنسان ــــ أي إنسان .. أن يقف قليلا بنظره عندها ، فيرى آيات بينات ، من علم اللّه وقدرته .."

ودليل ثالث أعجب مما سبق : « أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلى . وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ »..وصورة أخرى للدلالة على قدرة اللّه سبحانه .. هى هذه السموات والأرض .. من خلقها ؟ إنه اللّه سبحانه ، بإقرار الكافرين والمشركين أنفسهم

..إنهم لا يعرفون لهما خالقا غيره .. كما يقول سبحانه وتعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » (٢٥ : لقمان).

وهنا سؤال : أليس الذي خلق السموات والأرض قادرا على أن يخلق سموات كهذه السموات وأرضا كهذه الأرض ؟ وبديهية المنطق تقول : إن ذلك ممكن .. فمن صنع شيئا قادرا على أن يصنع أشياء مثله ، لا شيئا واحدا.

ولهذا جاء الجواب عن هذا السؤال : « بلى » أي بلى قادر .. « وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ».. الخلّاق ، الذي يزيد فى الخلق ما يشاء « العليم » الذي لا يعجزه شيء!"

أي إن من خلق السّموات السّبع بما فيها من الكواكب السّيارة والثّوابت ، والأرضين السّبع بما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وهي أعظم من خلق الإنسان ، إن من خلق ذلك قادر على خلق مثل البشر وإعادة الأجسام ، وهي أصغر وأضعف من السّموات والأرض ، بلى هو قادر على ذلك ، وهو الكثير الخلق ، الواسع العلم ، فقوله الْخَلَّاقُ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله الْعَلِيمُ إشارة إلى شمول العلم.

والخلاصة : أن خلق الأشياء العظيمة برهان قاطع على خلق ما دونها ، كما قال تعالى : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر ٤٠/ ٥٧] ، وقال سبحانه : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ؟ بَلى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف ٤٦/ ٣٣].

وتأكيدا للبيان ونتيجة لما سبق ، قال تعالى : « إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ». أي إنما شأنه سبحانه فى الخلق ، أن يريد ، فيقع ما يريد .. بلا معاناة ولا بحث .. إنه سبحانه يقول للشىء الذي يريد إيجاده « كن » فيكون كما أراد ..فبالكلمة خلق اللّه كل شىء .. إن الكلمة : « كن » هي مظهر إرادة اللّه. والموجودات هى مظاهر كلمات اللّه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى « قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » (١٠٩ : الكهف).

ومقتضى ثبوت القدرة التامة للّه تعالى : تنزيهه عما وصفوه به ، فقال : « فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ».فتسبيحا للّه ، وتنزيها له ، وإجلالا لجلاله ـــ سبحانه ـــ « بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » أي ملك كل شىء ، ملكا متمكنا ، مستوليا على كل ذرة فيه ..والملكوت : مبالغة فى الملك ، بالاستيلاء عليه استيلاء مطلقا ، يمسك بكل ذرة ، وبكل ما دون الذرة منه.

وفى قوله تعالى : « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » تقرير للبعث ، وتأكيد له .. وأنه ما دام بيد اللّه ملكوت كل شىء والناس من أشياء هذا الوجود الذي هو ملك للّه ، فإنهم لا بد راجعون إلى اللّه.

وإلى أين يذهب الناس بعد الموت إذا لم يرجعوا إلى اللّه ؟ إنهم إذا لم يرجعوا إليه فليسوا إذن فى ملكه .. وليس هناك شىء غير مملوك للّه ، وهو « الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » « أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ». (٥٤ : الأعراف) "

فهو الذي له ملكية الأشياء كلها ، وله القدرة الكاملة على التّصرف فيها كما يريد ، وبيده مفاتح كلّ شيء ، وإليه لا إلى غيره مرجع العباد بعد البعث في الدار الآخرة ، فيجازي كل إنسان بما عمل ، فليعبده الناس جميعا وليوحّدوه ويطيعوه ، تحقيقا لمصلحتهم.

ومضات

ويبدأ هذا المقطع بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته في خاصة نفسه. وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعا في حياته ، ويشهده بعينه وحسه مكررا معادا. ثم لا ينتبه إلى دلالته ، ولا يتخذ منه مصداقا لوعد اللّه ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره ..

«أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ» .. فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أنها أصله القريب؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ولا قيمة! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا .. خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنينا. ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل! والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين. وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور؟

«وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا - وَنَسِيَ خَلْقَهُ - قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» ..

يا للبساطة! ويا لمنطق الفطرة! ومنطق الواقع القريب المنظور! وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان؟

أو ليست هذه هي النشأة الأولى؟ أو ليس الذي حول تلك النطفة إنسانا ، وجعله خصيما مبينا بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقا حيا جديدا؟

إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال. فما بال الجدل الطويل؟!

«قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» ..

ثم يزيدهم إيضاحا لطبيعة القدرة الخالقة ، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون : «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ» .. والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة! العجيبة التي يمرون عليها غافلين. عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد نارا ثم يصير هو وقود النار. بعد اللدونة والاخضرار ..

والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة والتي تولد النار عند الاحتكاك ، كما تولد النار عند الاحتراق .. هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا في الحس ووضوحا. والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه. والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

غير أننا لا نرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي.

فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة. ولا تدلنا على مبدع الوجود. ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها ، ولعشنا معها في عبادة دائمة وتسبيح! ثم يستطرد في عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ» ..والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق .. هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع ، ثم لا نبلغ نحن شيئا من حجمها ، ولا شيئا من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل ..هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التي تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها .. وهذه الشمس واحدة من مائة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا ، والتي تؤلف دنيانا القريبة! وفي الكون مجرات أخرى كثيرة. أو دنييات كدنيانا القريبة. عد الفلكيون حتى اليوم منها مائة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة. وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد. وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مائة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال!) .. وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس. وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة! تلك الشموس التي لا يحصيها العد. لكل منها فلك تجري فيه. ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض

حول الشمس .. وكلها تجري وتدور في دقة وفي دأب. لا تتوقف لحظة ولا تضطرب. وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الوسيع ..

هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة. لا نحاول تصويره ولا تصوره .. فذلك شيء يدير الرؤوس! «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟».

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب؟

«بَلى ! وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ» ..ولكن اللّه – سبحانه – يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد. ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير : «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ. فَيَكُونُ».

يكون هذا الشيء سماء أو أرضا. ويكون بعوضة أو نملة. هذا وذلك سواء أمام الكلمة .. كن .. فيكون! ليس هناك صعب ولا سهل. وليس هنالك قريب ولا بعيد .. فتوجه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائنا ما يكون. إنما يقرب اللّه للبشر الأمور ليدركوها .بمقياسهم البشري المحدود.

وعند هذا المقطع يجيء الإيقاع الأخير في السورة. الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود : «فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ ءٍ. وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ..ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة. علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود.

والسيطرة القابضة على كل شيء من هذا المملوك.ثم إن إليه وحده المرجع والمصير ..إنه الإيقاع الختامي المناسب لهذه الجولة الهائلة ، وللسورة كلها ، ولموضوعاتها المتعلقة بهذه الحقيقة الكبيرة ، التي يندرج فيها كل تفصيل ..[١٣٩]

وقال دروزة : " تساءلت الآية الأولى تساءل المستنكر المندد عما إذا كان الإنسان لم يعرف أن اللّه إنما خلقه من نطفة حتى ينقلب خصما عنيدا له. وحكت الثانية موقف هذا الإنسان الذي نسي كيفية نشوئه وخلقه المذكورة فتساءل عمن يمكن أن يحيي العظام بعد أن تصبح رميما فتاتا متحدّيا بذلك ربّه العظيم الذي خلقه من تلك النطفة ومتجاهلا قدرته. واحتوت الآيات التالية أمرا ربانيا للنبي ﷺ بالردّ على هذا الإنسان السائل المتحدي المتجاهل ردّا قويا فيه تنديد لاذع بعبارة واضحة موجهة إلى العقل والقلب وفيه تدليل هنا على قدرة اللّه على إعادة الخلق وعظمته بما لا يمكن المكابرة فيه مما يقع تحت المشاهدة...

غير أننا نلاحظ أن السياق كلّه أي هذه الآيات وما قبلها منسجم يدلّ على الوحدة التقريرية والإلزامية والتنديدية. والذي يتبادر لنا من ذلك أن حكاية هذا الموقف قد جاءت كإشارة عرضية إلى بعض أسئلة الكفار ومواقفهم الساخرة بسبيل الردّ والتنديد مما تكرر كثيرا في النظم القرآني. وأسلوب الآيات قويّ من شأنه أن يفحم المجادل المكابر وأن يقطع عليه نفس الكلام والمكابرة. وفيه من الإفحام ما يظلّ مستمدُّ إلهامٍ وقوةٍ في

---

[١٣٩] – في ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص : ٢٩٧٧

صدد التدليل على قدرة اللّه عزّ وجلّ وعظمته كما هو المتبادر. ولقد كان السائلون يعترفون باللّه عزّ وجلّ وكونه خالق الأكوان ومدبّرها ومالك كل شيء ومرجع كل شيء على ما نبهنا عليه وأوردنا شواهده القرآنية في مناسبات سابقة ومن هنا يأتي الإفحام لهم قويا ملزما. غير أن هذا يظلّ كذلك دائما لأن دلائل وجود اللّه وقدرته مائلة في كل شيء لا يكابر فيها إلّا مكابر أو جاهل."[١٤٠]

ما ترشد إليه الآيات

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ – عجبا لأمر الإنسان ، سواء العاص بن وائل السّهمي ، أو أبيّ بن خلف الجمحي (و هو الأصح) أو أمية بن خلف أو غيرهم ، كيف خلقه اللّه من يسير الماء ، وأضعف الأشياء ، ثم يصبح مخاصما ربّه ، مجادلا في الخصومة ، مبيّنا للحجة ، أي أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا.

قال أبو حيان : قبّح تعالى إنكار الكفرة البعث حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة ، أفضى به مهانة أصله أن يخاصم الباري تعالى ، ويقول : من يحيي الميت بعد ما رمّ مع علمه أنه منشأ من موات.[١٤١]

٢ – لقد نسي هذا الإنسان الضعيف المخلوق أن اللّه أنشأه من نطفة ، ثم جعله إنسانا حيّا سويا ، فهذا دليل حاضر من نفسه على إمكان

---

[١٤٠] – التفسير الحديث لدروزة – (٣ / ٤٥)

[١٤١] – تفسير البحر المحيط ــــ موافق للمطبوع – (٧ / ٣٣٢)

البعث ، وقد احتج اللّه عزّ وجلّ على منكري البعث بالنشأة الأولى ، فكيف يقول الإنسان : من يحيي هذه العظام البالية؟!

والجواب : أنّ النّشأة الثانية مثل النّشأة الأولى ، فمن قدر على النّشأة الأولى قدر على النّشأة الثانية ، وأن اللّه عالم بكلّ الأشياء ، سواء الأجسام العظام أو الذّرات الصغار.

٣ - في قوله تعالى : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ دليل على أن في العظام حياة ، وأنها تنجس بالموت ، وهو قول أبي حنيفة ، وقال الشافعي : لا حياة فيها.

٤ - من أدلة وحدانيته تعالى وكمال قدرته على إحياء الموتى : ما يشاهده الناس من إخراج المحروق اليابس من العود الندي الطري ، فإن الشجر الأخضر من الماء ، والماء بارد رطب ضدّ النار ، وهما لا يجتمعان ، فأخرج اللّه منه النار ، فيدلّ ذلك على أنه تعالى هو القادر على إخراج الضدّ من الضدّ ، وهو على كلّ شيء قدير.

٥ - إنّ الذي خلق السموات والأرض التي هي أعظم من خلق الناس قادر على أن يبعثهم مرة أخرى.

٦ - إذا أراد اللّه خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة ، وإنما أمره نافذ فورا ، ولا يتوقف على شيء آخر.

٧ - إن اللّه تعالى نزّه نفسه عن العجز والشرك ، لتعليم الناس ، وإبراز الحقيقة ، فبيده مفاتح كلّ شيء ، ومردّ الناس ومصيرهم بعد مماتهم إليه تعالى ، ليحاسب كلّ امرئ على ما قدم في دنياه من خير أو شرّ.

أهم مقاصد هذه السورة

(١) بيان أن محمدا ﷺ رسول من عند اللّه حقا ، وأنه نذير للأميين وغيرهم.

(٢) المنذرون من النبي ﷺ صنفان : صنف ميئوس من صلاحه ، وآخر قد سعى لفلاحه.

(٣) أعمال الفريقين تحصى عليهم ، فتحفظ أخبارهم ، وتكتب آثارهم.

(٤) ضرب المثل لهم بأهل أنطاكية ، إذ كذبوا الناصح لهم وقتلوه فدخلوا النار ودخل الجنة بما قدم من إيمان وعمل صالح وهداية وإرشاد.

(٥) الدليل الطبيعي والعقلي على البعث.

(٦) تبيان قدرة اللّه ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة.

(٧) جزاء الجاحدين على كفرانهم أنعم اللّه عليهم وسرعة أخذهم وندمهم حين معاينة العذاب.

(٨) الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها.

(٩) توبيخ الكافرين على اتباعهم همزات الشياطين.

(١٠) قدرته تعالى على مسخهم في الدنيا وطمس أعينهم.

(١١) الانتفاع بالأنعام في المأكل والمشرب والملبس.

(١٢) إثبات البعث بما أقامه من أدلة في الآفاق والأنفس.[١٤٢]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[١٤٢] - تفسير الشيخ المراغى ـــ موافقا للمطبوع - (٢٣ / ٤٠)

أهم المصادر

١. جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيّ
٢. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
٣. صفوة التفاسير ــ للصابونى
٤. في ظلال القرآن موافق للمطبوع
٥. التفسير الحديث لدروزة –موافق للمطبوع
٦. تفسير المراغي
٧. تفسير القرطبي
٨. تفسير الرازي
٩. تفسير الألوسي
١٠. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور
١١. تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ
١٢. تفسير البحر المحيط ــ موافق للمطبوع
١٣. الدر المنثور للسيوطي
١٤. التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع
١٥. تفسير اللباب في علوم الكتاب
١٦. تفسير ابن كثير
١٧. كلمات القرآن للشيخ غازي الدروبي
١٨. سنن الترمذى
١٩. شعب الإيمان للبيهقي
٢٠. مُسْنَدُ الشِّهَابِ الْقُضَاعِيِّ
٢١. صحيح ابن حبان
٢٢. مسند أحمد
٢٣. مُسْنَدُ الرُّويَانِيِّ

٢٤. الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ
٢٥. دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ
٢٦. سنن الترمذى
٢٧. صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ
٢٨. صحيح مسلم
٢٩. الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ لِلْبَيْهَقِيِّ
٣٠. الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ
٣١. المنتقى - شرح الموطأ
٣٢. الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ

الفهرس العام

ما يتعلق بالسورة ٣
تسميتها : ٣
مناسبتها لما قبلها : ٣
أغراض هذه السورة : ٤
فضائلها : ١٠
استحباب قراءتها على الأموات : ١٤
شروط القراءة التي يصل ثوابها للميت : ١٦
حكم قراءة سورة يس بعد كل صلاة : ١٧
القرآن والرسول والمرسل إليهم ١٨
سبب النزول : ١٨
شرح الكلمات : ٢٠
التفسير والبيان : ٢١
ومضات ٣٠
ما ترشد إليه الآيات ٤٠
قصة أصحاب القرية ٤٢
شرح الكلمات : ٤٢
التفسير والبيان : ٤٤
ومضات ٥٣
ما ترشد إليه الآيات ٦٢
تعذيب مكذبي الرسل ٧١
شرح الكلمات : ٧١
المناسبة : ٧١
التفسير والبيان : ٧٢
ومضات ٧٦
ما ترشد إليه الآيات ٧٩

أدلة القدرة الإلهية على البعث وغيره ٨٠
شرح الكلمات :........ ٨٠
المناسبة : ٨١
التفسير والبيان :........ ٨٢
ومضات ٩٤
ما ترشد إليه الآيات........ ١٠٤
٨- حول سجود الشمس تحت العرش :........ ١٠٦
موقف الكفار من تقوى الله وآيات الله والشفقة على خلق الله ١١٤
شرح الكلمات :........ ١١٤
المناسبة : ١١٤
التفسير والبيان :........ ١١٥
ومضات ١١٩
ما ترشد إليه الآيات........ ١٢٤
إنكار الكفار يوم البعث وبيان أنه حق لا شك فيه ١٢٨
شرح الكلمات :........ ١٢٨
المناسبة : ١٢٨
التفسير والبيان :........ ١٢٩
ومضات ١٣٤
ما ترشد إليه الآيات........ ١٣٧
جزاء المحسنين ١٤٠
شرح الكلمات :........ ١٤٠
المناسبة : ١٤٠
التفسير والبيان :........ ١٤٠
ومضات ١٤٨
ما ترشد إليه الآيات........ ١٤٩
جزاء المجرمين........ ١٥٠
شرح الكلمات :........ ١٥٠

المناسبة : ١٥١
التفسير والبيان :.. ١٥١
ومضات ١٦٨
ما ترشد إليه الآيات.. ١٧٣
إثبات وجود الله ووحدانيته وبيان خواص الرسالة ١٧٨
شرح الكلمات :.. ١٧٨
المناسبة : ١٧٨
التفسير والبيان :.. ١٧٩
ومضات ١٩٠
ما ترشد إليه الآيات.. ٢٠٢
إثبات البعث.. ٢٠٧
شرح الكلمات :.. ٢٠٧
سبب النزول : ٢٠٧
المناسبة : ٢٠٨
التفسير والبيان :.. ٢٠٩
ومضات ٢١٦
ما ترشد إليه الآيات.. ٢٢١
أهم مقاصد هذه السورة.. ٢٢٣